١٧

صفوة التفاسير

القسم السابع عشر

تفسير جزء الذاريات

تأليف
محمد علي الصابوني
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى - مكة المكرمة

طبع على نفقة المحسن الكبير
معالي السيد حسن عباس الشربتلي
وجعله وقفاً لله تعالى

يوزع مجاناً ولا يباع

دار القرآن الكريم
بيروت

صفوة التفاسير

تفسير للقرآن الكريم ، جامع بين المأثور والمعقول ، مستمد من أوثق كتب التفسير

بأسلوب ميسّر ، وتنظيم حديث ، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

القسم السابع عشر

تفسير جزء الذاريات

تأليف

محمّد علي الصّابوني

الأستاذ بكليّة الشريعة والدراسات الإسلاميّة

جامعة أم القرى ـ مكّة المكرّمة

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

مَعَالي السيّد حَسَن عبّاس الشربتلي

وَجَعَلَهُ وَقْفًا لله تعالى

يوزع مجانًا ولا يُباع

دار القرآن الكريم

بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م

شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة، العمارية، الرياض



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* هذه السورة الكريمة من السور المكية التي تقوم على تشييد دعائم الإيمان ، وتوجيه الأبصار إلى قدرة الله الواحد القهار ، وبناء العقيدة الراسخة على أسس التقوى والإيمان .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن الرياح التي تذرو الغبار ،وتسيِّر المراكب في البحار ، وعن السحب التي تحمل مياه الأمطار ، وعن السفن الجارية على سطح الماء بقدرة الواحد الأحد ، وعن الملائكة الأطهار المكلفين بتدبير شئون الخلق ، وأقسمت بهذه الأمور الأربعة على أن الحشر كائن لا محالة ، وأنه لا بدَّ من البعث والجزاء .

* ثم انتقلت إلى الحديث عن كفار مكة ، المكذبين بالقرآن وبالدار الآخرة ، فبينت حالهم في الدنيا ، ومآلهم في الآخرة ، حيث يعرضون على نار جهنم فيصلون عذابها ونكالها .

* ثم تحدثت عن المؤمنين المتقين ، وما أعدَّ الله لهم من النعيم والكرامة في الآخرة ، لأنهم كانوا في الدنيا محسنين ، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب ، والإعذار والإنذار .

* ثم تحدثت عن دلائل القدرة والوحدانية في هذا الكون الفسيح ، في سمائه وأرضه ، وجباله ووهاده ، وفي خلق الإنسان في أبدع صورة وأجمل تكوين ، وكلها دلائل على قدرة رب العالمين .

* ثم انتقلت للحديث عن قصص الرسل الكرام ، وعن موقف الأمم الطاغية من أنبيائهم وما حلَّ بهم من العذاب والدمار ، فذكرت قصة إبراهيم ولوط ، وقصة موسى ، وقصة الطغاة المتجبرين من قوم عاد وثمود وقوم نوح ، وفي ذكر القصص وتكراره في القرآن تسلية للرسل الكرام ، وعبرةٌ لأولي الأبصار ، يعتبر بها من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

* وختمت السورة الكريمة ببيان الغاية من خلق الإنس والجن ، وهي معرفة الله جل وعلا ، وعبادته وتوحيده ، وإفراده بالإخلاص والتوجه لوجهه الكريم بأنواع القربات والعبادات .

* * *

قال الله تعالى : ﴿والذاريات ذرواً ۝ فالحاملات وقراً . . إلى . . للذين يخافون العذاب الأليم﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٣٧) .

اللغــة : ﴿الحُبُك﴾ الطرائق جمع حبيكة كطريقة وزناً ومعنى قال الزجاج : الحُبك الطرائق الحسنة ، والمحبوك في اللغة ما أُجيد عمله[١] وقال ابن الأعرابي : كلُّ شيءٍ أحكمته وأحسنت عمله فقد حبكته[٢] ﴿الخراصون﴾ جمع خرَّاص وهو الكذَّاب ﴿غمرة﴾ الغمرة ما ستر الشيء وغطَّاه ومنه نهر غمر ﴿يهجعون﴾ ينامون والهجوع النومُ ليلاً ﴿أوجس﴾ أحسَّ وشعر ﴿صرَّة﴾ صيحة وضجة ﴿مسوَّمة﴾ معلَّمة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾

التفسير : ﴿والذَّاريات ذَرْواً﴾ هذا قسمٌ أقسم تعالى به أي أُقسم بالرياح التي تذرو التراب فتفرِّقه ، وتحمل الرمال من مكان إلى مكان ﴿فالحاملات وِقراً﴾ أي وأقسم بالسحب التي تحمل أثقال الأمطار ، وهي محمَّلة بالماء الذي فيه حياة البشر ﴿فالجاريات يُسراً﴾ أي وأقسم بالسفن التي تجري على وجه الماء جرياً سهلاً بيسر وهي تحمل ذرية بني آدم ﴿فالمقسِّمات أمْراً﴾ أي وأقسم بالملائكة التي تقسم الأرزاق والأمطار بين العباد ، وكل ملك مخصَّص بأمر ، فجبريل صاحب الوحي إلى الأنبياء ، وميكائيل صاحب الرزق والرحمة ، وإسرافيل صاحب الصور ، وعزرائيل صاحب قبض الأرواح[٣] قال المفسرون : أقسم الله تعالى بهذه الأشياء لشرفها ولما فيها من الدلالة على عجيب صنعه وقدرته ، ثم ذكر جواب القسم فقال ﴿إنما تُوعدون لصادق﴾ أي إن الذي توعدونه من الثواب والعقاب ، والحشر والنشر ، لأمرٌ صدقٌ محقَّق لا كذب فيه ﴿وإنَّ الدين لواقعٌ﴾ أي وإنَّ الجزاء لكائنٌ لا محالة ، ثم ذكر تعالى قسماً آخر فقال ﴿والسَّماء ذاتِ الحُبُك﴾ أي وأقسم بالسماء ذات الطرائق المحكمة والبنيان المتقن قال ابن عباس : ذات الخلق الحسن المستوي[٤] ﴿إنَّكم لفي قول مختلف﴾ جواب القسم أي إنكم أيها الكفار لفي قول مضطرب في أمر محمد ، فمنكم من يقول إنه ساحر ، ومنكم من يقول إنه شاعر ، وبعضكم يقول إنه مجنون إلى غير ما هنالك من أقوال مختلفة ﴿يُؤْفكُ عنه مَنْ أُفك﴾ أي يُصرف عن الإيمان بالقرآن وبمحمد عليه السلام ، من صُرِف عن الهداية في علم الله تعالى وحُرِم السعادة ﴿قُتل الخرَّاصون﴾ أي لُعن الكذابون الذين قالوا إن النبيﷺ ساحر وكذاب وشاعر قال ابن الأنباري : والقتلُ

(١) زاد المسير ٨/ ٢٩ . (٢) البحر المحيط ٨/ ١٣٢ . (٣) حاشية الجمل ٤/ ٢٠١ . (٤) تفسير الخازن ٤/ ٢٠٠ .

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا

إذا أُخبر عن الله به فهو بمعنى اللعنة ، لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك[١] ﴿الَّذين هُم في غمْرةٍ ساهُون﴾ أي الذين هم غافلون لاهون عن أمر الآخرة ﴿يسألونَ أيَّان يومُ الدِّين﴾ أي يقولون تكذيباً واستهزاءً : متى يوم الحساب والجزاء ؟ قال تعالى رداً عليهم ﴿يومَ هُم على النَّارِ يُفتنون﴾ أي هذا الجزاء كائن يوم يدخلون جهنم ويُحرقون بها ﴿ذُوقوا فِتْنتكم﴾ أي تقول لهم خزنة النار : ذوقوا تعذيبكم وجزاءكم ﴿هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾ أي هذا الذي كنتم تستعجلونه في الدنيا استهزاءً . . ولما ذكر حال الكفار ذكر المؤمنين الأبرار فقال ﴿إنَّ المتقين في جناتٍ وعُيون﴾ أي هم في بساتين فيها عيون جاريةٌ ، تجري فيها على نهاية ما يُتنزه به ﴿آخذين ما آتاهم ربُّهم﴾ أي راضين بما أعطاهم ربهم من الكرامة والنعيم ﴿إنَّهم كانُوا قبل ذلك مُحْسنين﴾ أي كانوا في دار الدنيا محسنين في الأعمال ، ثم ذكر طرفاً من إحسانهم فقال ﴿كانُوا قليلاً من اللَّيلِ ما يَهْجَعُون﴾ أي كانوا ينامون قليلاً من الليل ويصلُّون أكثره قال الحسن : كابدوا قيام الليل لا ينامون منه إلا قليلاً[٢] ﴿وبالأسْحَار هُم يَسْتغفرون﴾ أي وفي أواخر الليل يستغفرون الله من تقصيرهم ، فهم مع إحسانهم يعدُّون أنفسهم مذنبين ، ولذلك يكثرون الاستغفار بالأسحار قال أبو السعود : أي هم مع قلة نومهم وكثرة تهجدهم يداومون على الاستغفار بالأسحار ، كأنهم أسلفوا ليلهم باقتراف الجرائم[٣] ، وهو مدح ثانٍ للمحسنين ﴿وفي أموالهم حقٌ للسائل والمحروم﴾ مدحٌ ثالث أي وفي أموالهم نصيب معلوم قد أوجبوه على أنفسهم بمقتضى الكرم للسائل المحتاج ، وللمتعفف الذي لا يسأل لتعففه[٤] ﴿وفي الأرض آياتٌ للموقنين﴾ أي وفي الأرض دلائل واضحة على قدرة الله سبحانه ووحدانيته للموقنين بالله وعظمته ، الذين يعرفونه بصنعه قال ابن كثير : أي وفي الأرض من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة ، مما فيها من صنوف النباتات والحيوانات ، والجبال والقفار ، والبحار ، والأنهار ، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم ، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم ، والسعادة والشقاوة ، وما في تركيبهم من الخلق البديع[٥] ، ولهذا قال بعده ﴿وفي أنفسكم أفلا تُبصرون﴾ أي وفي أنفسكم آياتٌ وعبرٌ من مبدأ خلقكم إلى منتهاه ، أفلا تبصرون قدرة الله في خلقكم لتعرفوا قدرته على البعث ؟ قال ابن عباس : يريد اختلاف

(١) زاد المسير لابن الجوزي ٨/ ٣٠ . (٢) البحر المحيط ٨/ ١٣٥ . (٣) إرشاد العقل السليم ٥/ ٢٤٠
(٤) هذا هو المشهور عن ابن عباس أنه حق سوى الزكاة ، يقري به ضيفاً ، ويصل به رحماً ، ويحمل به كلاً ، وقيل : إنه الزكاة وهو قول قتادة وابن سيرين . (٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٤ .

تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ

الصور ، والألسنة ، والألوان ، والطبائع ، والسمع والبصر والعقل[١] إلى غير ذلك من العجائب المودعة في ابن آدم وقال قتادة : من تفكَّر في خلق نفسه عرف أنه إنما خُلق ولُيِّنت مفاصله للعبادة ﴿وفي السَّماء رزقكم وما تُوعدون﴾ أي وفي السماء أسباب رزقكم ومعاشكم وهو المطر الذي به حياة البلاد والعباد ، وما توعدون به من الثواب والعقاب مكتوب كذلك في السماء قال الصاوي : والآيةُ قُصد بها الامتنان والوعد والوعيد[٢] ﴿فورَبِّ السَّماء والأرض إنَّهُ لحقٌ مثل ما أنَّكم تنْطقون﴾ أي أُقسم بربِّ السماءِ والأرض إن ما توعدون به من الرزق والبعث والنشور لحقٌّ كائن لا محالة مثل نطقكم ، فكما لا تشكون في نطقكم حين تنطقون فكذلك يجب ألا تشكوا في الرزق والبعث قال المفسرون : وهذا على سبيل التشبيه والتمثيل أي رزقكم مقسوم في السماء كنطقكم فلا تشكوا في ذلك ، وهذا كقول القائل : هذا حق كما أنك ههنا ، وهذا حقٌّ كما أنك ترى وتسمع[٣] ، فالرزق مثل النطق لا يفارق الشخص في حالٍ من الأحوال وفي الحديث (لو أن أحدكم فرَّ من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت)[٤] . . ثم ذكر تعالى قصة ضيف إبراهيم تسلية لقلب النبي الكريم فقال ﴿هل أتاكَ حديثُ ضيفِ إبراهيم المكرمين﴾ ؟ الاستفهام للتشويق ولتفخيم شأن تلك القصة كما يقول القائل : هل بلغك الخبر الفلاني ؟ يريد تشويقه إلى استماعه والمعنى هل وصل إلى سمعك يا محمد خبر ضيوف إبراهيم المعظَّمين ؟ قال ابن عباس : يريد جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام[٥] ، سُمُّوا مكرمين لكرامتهم عند الله عز وجل ﴿إذْ دخلوا عليه فقالوا سلاماً﴾ أي حين دخلوا على إبراهيم فقالوا : نسلِّم عليك سلاماً ﴿قال سلامٌ قومٌ مُنكرون﴾ أي قال عليكم سلامٌ أنتم قومٌ غرباء لا نعرفكم فمن أنتم ؟ قال ابن كثير : وإنما أنكرهم لأنهم قدموا عليه في صورة شبانٍ حسانٍ عليهم مهابة عظيمة ولهذا أنكرهم[٦] وقال أبو حيان : والذي يناسب حال إبراهيم عليه السلام أنه لا يخاطبهم بذلك ، إذْ فيه من عدم الإنس ما لا يخفى ، وإنما قال ذلك في نفسه ، أو لمن كان معه من أتباعه وغلمانه ، بحيث لا يسمع ذلك الأضياف[٧] ﴿فراغ إلى أهله﴾ أي فمضى إلى أهله في سرعة وخفية عن ضيفه ، لأن من أدب المضيف أن يبادر بإحضار الضيافة من غير أن يشعر به الضيف ، حذراً من أن يمنعه الضيف ، أو يُثقل عليه في التأخير قال ابن قتيبة : عدل إليهم في خفية ولا يكون الرَّواغُ إلا أن تُخفي ذهابك ومجيئك[٨] ﴿فجاء بعجلٍ سمين﴾ أي فجاءهم بعجل سمينٍ مشويٍ ، والعجلُ ولدُ البقرة وكان عامة ما له البقر ، واختاره لهم سميناً زيادة في إكرامهم ﴿فقرَّبه إليهم

(١) تفسير الخازن ٤ - ٢٠٣ . (٢) حاشية الصاوي ٤/ ١٢٥ . (٣) انظر البحر المحيط ٨/ ١٣٧ . (٤) ذكره القرطبي في تفسيره ١٧/ ٤٣ وأسنده إلى الثعلبي . (٥) تفسير القرطبي ١٧/ ٤٤ . (٦) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٥ . (٧) البحر المحيط ٨/ ١٣٩ . (٨) تفسير ابن الجوزي ٨/ ٣٦ .

﴿خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾

فقال ﴿ألا تأكلون﴾ أي فأدناه منهم ووضعه بين أيديهم فلم يأكلوا فقال لهم في تلطف وبشاشة : ألا تأكلون هذا الطعام ؟ قال ابن كثير : وفي الآية تلطف في العبارة وعرض حسن ، وقد انتظمت الآية آداب الضيافة ، فإنه جاء بطعامٍ من حيث لا يشعرون بسرعة ، ولم يمتنّ عليهم أولاً فقال نأتيكم بطعام بل جاء به بسرعةٍ وخفاء ، وأتى بأفضل ما وجد من ماله وهو عجل فتيٌّ سمين مشوي ، فقربه إليهم ولم يضعه وقال اقتربوا بل وضعه بين أيديهم ، ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم بل قال : ألا تأكلون ؟ على سبيل العرض والتلطف كما يقول القائل : إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل[١] ﴿فأوجس منهم خيفةً﴾ أي فأضمر في نفسه الخوف منهم لما رأى إعراضهم عن الطعام ﴿قالوا لا تخف﴾ أي قالوا له لا تخف إنا رسل ربك ﴿وبشَّروه بغلامٍ عليم﴾ أي وبشروه بولدٍ يولد له من زوجته سارة يكون عالماً عند بلوغه قال أبو حيان : وفيه تبشيرٌ بحياته حتى يكون من العلماء[٢] ، والجمهور على أن المبشر به هو إسحاق لقوله تعالى في سورة هود ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ ﴿فأقبلت امرأته في صرَّةٍ﴾ أي فأقبلت سارة نحوهم حين سمعت البشارة في صيحةٍ وضجة قال المفسرون : لما سمعت بالبشارة وكانت في زاوية من زوايا البيت جاءت نحوهم في صيحة عظيمة تريد أن تستفسر الخبر ﴿فصكَّتْ وجهها﴾ أي فلطمت وجهها على عادة النساء عند التعجب قال ابن عباس : لطمت وجهها تعجباً كما تتعجب النساء من الأمر الغريب[٣] ﴿وقالت عجوزٌ عقيمٌ﴾ أي قالت أنا عجوز عقيم فكيف ألد ؟ والعقيم هي التي لم تلد قطّ لانقطاع حبلها قال الإمام الجلال : كان عمرها تسعاً وتسعين سنة ، وعمر إبراهيم مائة وعشرين[٤] ﴿قالوا كذلك قال ربُّكِ﴾ أي الأمر كما أخبرناك هكذا حكم وقضى ربك من الأزل فلا تعجبي ولا تشكّي فيه ﴿إنه هو الحكيمُ العليمُ﴾ أي الحكيم في صنعه ، العليم بمصالح خلقه ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون﴾ أي ما شأنكم الخطير الذي لأجله أرسلتم أيها الملائكة الأبرار ؟ قال البيضاوي : لما علم أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون مجتمعين إلا لأمرٍ عظيم سأل عنه[٥] ﴿قالوا إنا أُرسلنا إلى قومٍ مجرمين﴾ أي قالوا إن الله أرسلنا لإهلاك قوم لوط الذين ارتكبوا أفحش الجرائم « اللواط » وكانوا ذوي جرائم متعددة ، وهي كبار المعاصي من كفر وعصيان ﴿لنرسل عليهم حجارة من طين﴾ أي لنهلكهم بحجارةٍ من طين متحجر مطبوخ بالنار وهو السجيل قال أبو حيان : والسجيلُ طينٌ يطبخ كما يطبخ الآجر حتى يصبح في صلابة الحجارة[٦] ﴿مسوَّمة عند ربك﴾ أي معلَّمة من عند الله بعلامة ، على كل واحدةٍ منها اسم صاحبها الذي يَهلك بها ﴿للمسرفين﴾ أي

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٥ . (٢) البحر المحيط ٨/ ١٣٩ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٨٥ .
(٤) حاشية تفسير الجلالين ٤/ ١٢٦ . (٥) تفسير البيضاوي ٤/ ١٦٧ . (٦) البحر المحيط ٨/ ١٤٠ .

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾

المجاوزين الحدَّ في الفجور قال الصاوي : كان في قرى لوط ستمائة ألف فأدخل جبريل جناحه تحت الأرض فاقتلع قراهم ، ورفعها حتى سمع أهل السماء أصواتهم ثم قلبها ، ثم أرسل الحجارة على من كان خارجاً عنها[1] ﴿فأخْرجنا من كان فيها من المؤمنين﴾ أي فأخرجنا من كان في قرى أهل لوط من المؤمنين لئلا يهلكوا ﴿فما وجدنا فيها غير بيتٍ من المسلمين﴾ أي فما كان فيها بعد البحث والتفتيش غير أهل بيت واحد من المسلمين قال مجاهد : هم لوطٌ وابنتاه ، والغرضُ من الآية بيان قلة المؤمنين الناجين من العذاب ، وكثرة الكافرين المستحقين للهلاك قال الإمام الجلال : وصفوا بالإيمان والإسلام أي هم مصدقون بقلوبهم ، عاملون بجوارحهم الطاعات[2] ﴿وتركنا فيها آية﴾ أي أبقينا في تلك القرى المهلكة بعد إهلاك الظالمين علامةً على هلاكهم بجعل عاليها سافلها ﴿للذين يخافون العذاب الأليم﴾ أي للذين يخافون عذاب الله فإنهم المعتبرون به قال ابن كثير : ومعنى الآية ﴿وتركنا فيها آية﴾ أي جعلناها عبرةً بما أنزلنا بهم من العذاب والنكال ، وجعلنا محلتهم بحيرةً منتنة خبيثة ففي ذلك عبرةٌ للمؤمنين الذين يخافون العذاب الأليم[3] .

تنبيه : قال الإمام الرازي : في قصة ضيف إبراهيم تسلية لقلب النبي الكريم ﷺ ببيان أن غيره من الأنبياء عليهم السلام كان مثله ، واختار تعالى إبراهيم لكونه شيخ المرسلين ، وكون النبي ﷺ على سنته في بعض الأشياء ، وفيها إنذار لقومه بما جرى من الضيف ومن إنزال الحجارة على المذنبين المضلين[4] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وفي موسى إذْ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين .. إلى .. من يومهم الذي يوعدون﴾ من آية (٣٨) إلى آية (٦٠) نهاية السورة .

المناسبة : لما ذكر تعالى قصة ضيف إبراهيم الذين أُرسلوا لهلاك قوم لوط ، أتبعه بذكر قصص الأمم الطاغية ، فذكر منهم فرعون وجنوده ، وعاداً، وثمود ، وقوم نوح ، تسلية للنبي عليه السلام ، وتذكيراً للأنام بانتقام الله من أعدائه وأعداء رسله ، ثم ذكر دلائل القدرة والوحدانية ، وختم السورة الكريمة بإنذار المكذبين الضالين .

اللغة : ﴿نبذناهم﴾ طرحناهم ﴿اليم﴾ البحر ﴿مليم﴾ آتٍ بما يلام عليه ﴿الرميم﴾ الشيء الهالك البالي قال الزجاج : الرميمُ : الورق الجاف المتحطم مثل الهشيم[5] ، ورمَّ العظم إذا بلي فهو رِمَّة

(١) حاشية الصاوي ٤/ ١٢٦ . (٢) تفسير الجلالين ٤/ ٢٠٥ . (٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٥ .
(٤) التفسير الكبير ٧/ ٦٦٦ . (٥) زاد المسير ٨/ ٣٩ .

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾

ورميم قال جرير يرثي ابنه :

تركتني حين كفَّ الدهر من بصري ... وإذْ بقيتُ كعظم الرمَّة البالي[1]

﴿الماهدون﴾ مهدتُ الفراش مهداً بسطته ووطأته ، والتمهيد تسوية الشيء وإصلاحه ﴿ذنوباً﴾ الذَّنوب : بفتح الذال النصيب من العذاب .

التفسير : ﴿وفي موسى إذْ أرسلناه إلى فرعون﴾ أي وجعلنا في قصة موسى أيضاً آيةً وعبرة وقت إرسالنا له إلى فرعون ﴿بسلطانٍ مبين﴾ أي بحجة واضحة ودليلٍ باهر ﴿فتولى بركنه﴾ أي فأعرض عن الايمان بموسى بجموعه وأجناده ، وقوته وسلطانه قال مجاهد : تعزَّز عدوُّ الله بأصحابه[2] والغرض أن فرعون أعرض عن الايمان بسبب ما كان يتقوى به من جنوده لأنهم كانوا له كالركن الذي يعتمد عليه البنيان ﴿وقال ساحرٌ أو مجنونٌ﴾ أي وقال اللعين في شأن موسى إنه ساحرٌ ولذلك أتى بهذه الخوارق ، أو مجنون ولذلك ادَّعى الرسالة ، وإنما قال ذلك تمويهاً على قومه لا شكاً منه في صدق موسى[3] ﴿فأخذناه وجنوده﴾ أي فأخذنا فرعون مع أصحابه وجنوده ﴿فنبذناهم في اليمّ﴾ أي فطرحناهم في البحر لما أغضبونا وكذبوا رسولنا ﴿وهو مليم﴾ أي وهو آتٍ بما يلام عليه من الكفر والطغيان .. ثم لما انتهى من قصة فرعون أعقبها بذكر قصة عاد فقال ﴿وفي عادٍ إذْ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾ أي وجعلنا في قصة عاد كذلك آية لمن تأمل حين أرسلنا عليهم الريح المدمرة ، التي لا خير فيها ولا بركة ، لأنها لا تحمل المطر ولا تلقّح الشجر ، وإنما هي للإهلاك ، وهي الريح التي تسمَّى الدبور وفي الصحيح « نُصرت بالصبا وأُهلكت عادٌ بالدَّبور » قال المفسرون : سميت ﴿الريح العقيم﴾ تشبيهاً لها بعقم المرأة التي لا تحمل ولا تلد ، ولما كانت هذه الريح لا تلقح سحاباً ولا شجراً ، ولا خير فيها ولا بركة لأنها لا تحمل المطر شبهت بالمرأة العقيم ﴿ما تذر من شيءٍ أتت عليه﴾ أي ما تترك شيئاً مرَّت عليه في طريقها مما أراد الله تدميره وإهلاكه ﴿إلا جعلته كالرَّميم﴾ أي إلا جعلته كالهشيم المتفتت البالي قال ابن عباس : ﴿الرميم﴾ الشيء الهالك البالي وقال السدي : هو التراب والرماد المدقوق[4] كقوله تعالى ﴿تدمر كل شيءٍ بأمر ربها﴾ قال المفسرون : كانت الريح التي أرسلها الله عليهم ريحاً صرصراً عاتية ، استمرت عليهم

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ٥١ . (٢) المختصر ٣/ ٣٨٦ . ونقل عن ابن عباس أن المراد « بركنه » أي بقوته وسلطانه ، وقد جمعنا بين القولين في التفسير . (٣) لفظة « أو » للشك ، وذهب بعض المفسرين إلى أنها بمعنى الواو أي ساحر ومجنون لأن اللعين قال الأمرين معاً فقال ﴿إن هذا لساحرٌ عليم﴾ وقال ﴿إن رسولكم الذي أُرسل إليكم لمجنون﴾ وهو اختيار القرطبي ، وقال الألوسي : لا ضرورة إلى ذلك التأويل لأن اللعين كان يتلون تلون الحرباء . (٤) تفسير الخازن ٤/ ٢٠٥ (٥) حاشية الجمل ٤/ ٢٠٧

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾

ثمانية أيام متتابعة ، فكانت تهدم البنيان وتنتزع الرجال فترفعهم إلى السماء حتى يرى الواحد منهم كالطير ثم ترمي به إلى الأرض جثة هامدة ﴿كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية﴾ . . ثم أخبر تعالى عن هلاك ثمود فقال ﴿وفي ثمود﴾ أي وجعلنا في ثمود أيضاً آية وعبرة ﴿إذْ قيل لهم تمتَّعوا حتى حين﴾ أي حين قيل لهم عيشوا متمتعين بالدنيا إلى وقت الهلاك بعد عقرهم للناقة ، وهو ثلاثة أيام كما في هود ﴿قال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾ ﴿فعتوا عن أمر ربهم﴾ أي فاستكبروا عن امتثال أمر الله ، وعصوا رسولهم فعقروا الناقة ﴿فأخذتهم الصاعقةُ﴾ أي فأخذتهم الصيحة المهلكة - صيحة العذاب - ﴿وهم ينظرون﴾ أي وهم يشاهدونها ويعاينونها لأنها جاءتهم في وضح النهار قال ابن كثير : وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام فجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار[١] وقال الألوسي : إن صالحاً عليه السلام وعدهم بالهلاك بعد ثلاثة أيام وقال لهم : تصبح وجوهكم غداً مصفرة ، وبعد غد محمرة ، وفي اليوم الثالث مسودةً ، ثم يصبحكم العذاب ، فلما رأوا الآيات التي بينها عليه السلام عمدوا إلى قتله فنجاه الله ، وفي اليوم الرابع أتتهم الصاعقة وهي نار من السماء وقيل صيحة فهلكوا[٢] ﴿فما استطاعوا من قيام﴾ أي ما قدروا على الهرب والنهوض من شدة الصيحة ، بل أصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿وما كانوا منتصرين﴾ أي وما كانوا ممن ينتصر لنفسه فيدفع عنها العذاب . . ثم أخبر تعالى عن هلاك قوم نوح فقال : ﴿ وقومَ نُوحٍ من قبل﴾ أي وأهلكنا قوم نوحٍ بالطوفان من قبل إهلاك هؤلاء المذكورين ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ تعليلٌ للهلاك أي لأنهم كانوا فسقةً خارجين عن طاعة الرحمن بارتكابهم الكفر والعصيان . . ولما انتهى من أخبار هلاك الأمم الطاغية المكذبة ، شرع في بيان دلائل القدرة والوحدانية فقال ﴿والسَّماءَ بنيناها بأيدٍ﴾ أي وشيدنا السماء وأحكمنا خلقها بقوةٍ وقدرة قال ابن عباس : ﴿بأيدٍ﴾ بقوة[٣] ﴿وإنا لموسعون﴾ أي وإنا لموسعون في خلق السماء ، فإن الأرض وما يحيط بها من الهواء والماء بالنسبة لها كحلقة صغيرة في فلاة كما ورد في بعض الأحاديث[٤] وقال ابن عباس : ﴿لموسعون﴾ أي لقادرون، من الوسع بمعنى الطاقة ﴿والأرض فرشناها﴾ أي والأرض مهدناها لتستقروا عليها ، وبسطناها لكم ومددنا فيها لتنتفعوا بها بالطرقات وأنواع المزروعات ، ولا ينافي ذلك كرويتها ، فذلك أمرٌ مقطوع به ، فإنها مع كرويتها واسعة ممتدة ، فيها السهول الفسيحة ، والبقاع الواسعة ، مع الجبال والهضاب ولهذا قال تعالى

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٨٦ . (٢) روح المعاني ٢٧/ ١٦ .

(٣) تفسير ابن الجوزي ٨/ ٤٠ . (٤) انظر إلى عظمة الكون بعين البصيرة والعقل ، لترى عظمة الخالق الكبير المتعال ، فإن هذه الأرض التي نعيش فوق سطحها ما هي إلا ذرة أو نقطة تسبح في هذا الكون الفسيح ، الذي لا يعلم سعته وعظمته إلا الله رب العالمين ، منشىء الأكوان وخالق الإنسان ، وتمعَّنْ وأنت تقرأ هذه الآية الكريمة ﴿وإنا لموسعون﴾ عظمة الكون لتسبح الله مع المسبحين بقلبك ولسانك

وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

﴿فنعم الماهدون﴾ أي فنعم الباسطون الموسعون لها نحن ، وصيغة الجمع للتعظيم ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ أي ومن كل شيء خلقنا صنفين ونوعين مختلفين ذكراً وأنثى ، وحلواً وحامضاً ونحو ذلك[1] ﴿لعلَّكم تذكَّرون﴾ أي كي تتذكروا عظمة الله فتؤمنوا به ، وتعلموا أن خالق الأزواج واحد أحد ﴿ففروا إلى الله﴾ أي الجأوا إلى الله ، وأهرعوا إلى توحيده وطاعته قال أبو حيان : والأمر بالفرار إلى الله أمرٌ بالدخول في الايمان وطاعة الرحمن ، وإنما ذكر بلفظ الفرار لينبه على أن وراء الناس عقاباً وعذاباً ، وأمرٌ حقه أن يُفر منه ، فقد جمعت اللفظة بين التحذير والاستدعاء ، ومثله قول النبي ﷺ : (لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك)[2] وقال ابن الجوزي : المعنى اهربوا مما يوجب العقاب من الكفر والعصيان ، إلى ما يوجب الثواب من الطاعة والايمان[3] ﴿إني لكم منه نذيرٌ﴾ أي إني أنذركم عذاب الله وأخوفكم انتقامه ﴿مبينٌ﴾ أي واضحُ أمري فقد أيدني الله بالمعجزات الباهرات ﴿ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر﴾ أي لا تشركوا مع الله أحداً من بشر أو حجر ﴿إني لكم منه نذير مبين﴾ كرر اللفظ للتأكيد والتنبيه إلى خطر الإشراك بالله قال الخازن : وإنما كرر اللفظ عند الأمر بالطاعة ، والنهي عن الشرك ، ليعلم أن الايمان لا ينفع إلاّ مع العمل ، كما أن العمل لا ينفع إلا مع الايمان ، وأنه لا يفوز وينجو عند الله إلاّ الجامع بينهما[4] ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلاّ قالوا ساحرٌ أو مجنون﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ أي كما كذبك قومك يا محمد ، وقالوا عنك إنك ساحرٌ أو مجنون ، كذلك قال المكذبون الأولون لرسلهم ، فلا تحزن لما يقول المجرمون ﴿أتواصوا به﴾ أي هل أوصى أولهُم آخرهم بالتكذيب ؟ وهو استفهام للتعجب من إجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة ، ثم أضرب عن هذا النفي والتوبيخ فقال ﴿بل هم قومٌ طاغون﴾ أي لم يوص بعضهم بعضاً بذلك ، بل حملهم الطغيان على التكذيب والعصيان فلذلك قالوا ما قالوا ﴿فتولَّ عنهم﴾ أي فأعرض يا محمد عنهم ﴿فما أنت بملوم﴾ أي فلا لوم عليك ولا عتاب ، لأنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ، وبذلت الجهد في النصح والإرشاد ﴿وذكّر فإنَّ الذكرى تنفع المؤمنين﴾ أي لا تدع التذكير والموعظة فإن القلوب المؤمنة تنتفع وتتأثر بالموعظة الحسنة . . ثم ذكر تعالى الغاية من خلق الخلق فقال ﴿وما خلقتُ الجنَّ والإنس إلاَّ

(١) هذا قول ابن زيد ، وقال مجاهد : يعني به المتقابلات كالذكر والأنثى ، والسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والنور والظلام ، والخير والشر وأمثال ذلك كذا في القرطبي ١٧/٥٣ وهو اختيار الطبري لأنه أدل على العظمة والقدرة . (٢) البحر المحيط ٨/١٤٢ . (٣) تفسير ابن الجوزي ٨/٤١ .

﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾

ليعبُـدون﴾ أي وما خلقت الثقلين الإنس والجن إلا لعبادتي وتوحيدي ، لا لطلب الدنيا والانهماك بها قال ابن عباس : ﴿إلاّ ليعبـدون﴾ إلا ليقروا لي بالعبادة طوعاً أو كرهاً وقال مجاهـد : إلا ليعرفونـي[١] قال الرازي : لما بيَّـن تعالى حال المكذبين ذكر هذه الآية ليبيِّـن سوء صنيعهم حيث تركوا عبادة الله مع أن خلقهم لم يكن إلا للعبادة[٢] ﴿مـا أريـدُ منهـم مـن رزق﴾ أي لا أريد منهم أن يرزقوني أو يرزقـوا أنفسهم أو غيرهم بل أنا الرزَّاق المعطي ﴿ومـا أُريـدُ أن يُطعمـــون﴾ أي ولا أُريد منهم أن يطعموا خلقي ولا أن يطعموني فأنا الغني الحميد قال البيضاوي : والمراد أن يبيِّـن أن شأنه مع عباده ليس شأن السادة مع عبيدهم ، فإنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم[٣] ، فكأنه سبحانه يقول : ما أريد أن أستعين بهم كما يستعين السادة بعبيدهم ، فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتي ﴿إن اللـه هـو الرزَّاقُ﴾ أي إنه جل وعلا هو الرازق ، المتكفل بأرزاق العباد وحاجاتهـم ، أتـى باسـم الجلالـة الظاهـر للتفخيم والتعظيم ، وأكد الجملة بإن والضمير المنفصل لقطع أوهام الخلق في أمور الرزق ، وليقوي اعتمادهم على الله ﴿ذُو القُـوة﴾ أي ذو القدرة الباهرة ﴿المتيـنُ﴾ أي شديد القوة لا يطرأ عليه عجزٌ ولا ضعف قال ابن كثير : أخبر تعالى أنه غير محتاج إليهم ،بل هم الفقراء إلى الله في جميع أحوالهم فهو خالقهم ورازقهم ، وفي الحديث القدسي (يا ابن آدم تفرَّغ لعبادتي أملأْ صدرك غنى ، وإلا تفعل ملأتُ صدرك شغلاً ولم أسدَّ فقرك)[٤] ﴿فإن للذيـن ظلمـوا ذَنوباً مثـل ذنوب أصحابهـم﴾ أي فإن لهؤلاء الكفار الذين كذبوا الرسول ﷺ نصيباً من العذاب مثل نصيب أسلافهـم الـذين أهلكـوا كقـوم نوح وعـاد وثمـود ﴿فـلا يستعجلـو ن﴾ أي فلا يتعجلوا عذابي فإنه واقع لا محالة إن عاجلاً أو آجلاً ﴿فويل للذيـن كفروا من يومهـم الـذي يوعـدون﴾ أي هلاك ودمار وشدة عذاب لهؤلاء الكفار في يوم القيامة الذي وعدهم الله به.

البـَــلاَغَـــة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق ﴿وفي أموالهم حقٌ للسائل والمحروم﴾ لأن السائل الطالب ، والمحروم المتعفف .

٢ ـ تأكيد الخبر بالقسم وإنَّ واللام ﴿فوربِّ السماء والأرض إنـه لحـقٌ﴾ ويسمـى هذا الضرب إنكارياً ، لأن المخاطب منكر لذلك .

٣ ـ أسلوب التشويق والتفخيم ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾ ؟

٤ ـ الاستعارة ﴿فتولى بركنه﴾ استعار الركن للجنود والجموع لأنه يحصل بهم التقوى والاعتماد كما

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ٥٥ . (٢) تفسير الفخر الرازي ٧/ ٦٨٥ .
(٣) تفسير البيضاوي ٤/ ١٦٨ . (٤) أخرجه الترمذي وأحمد وانظر المختصر ٣/ ٣٨٧ .

يعتمد على الركن في البناء أو استعارة للقوة والشدة .

٥ ـ المجاز العقلي ﴿وهو مليم﴾ أطلق اسم الفاعل على اسم المفعول أي ملام على طغيانه .

٦ ـ الاستعارة التبعية ﴿الريح العقيم﴾ شبه إهلاكهم وقطع دابرهم بعقم النساء وعدم حملهن ثم أطلق المشبه به على المشبه واشتق منه العقيم بطريق الاستعارة .

٧ ـ حذف الإيجاز ﴿قوم منكرون﴾ أي أنتم قوم منكرون ومثلها ﴿عجوز عقيم﴾ أي أنا عجوز .

٨ ـ التشبيه المرسل المجمل ﴿ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم﴾ أي نصيباً من العذاب مثل نصيب أسلافهم المكذبين في الشدة والغلظة ، حذف منه وجه الشبه فهو مجمل .

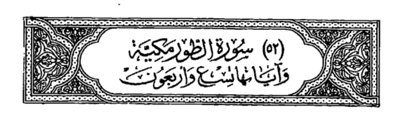
٩ ـ الإطناب بتكرار الفعل ﴿ما أُريد منهم من رزق وما أُريد أن يطعمون﴾ للمبالغة والتأكيد .

١٠ ـ السجع الرصين غير المتكلف الذي يزيد في جمال الأسلوب ورونقه مثل ﴿والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون . . والأرض فرشناها فنعم الماهدون﴾ وهو من المحسنات البديعية .

لطيفة : ذكر أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾ فقال : يا سبحان الله من الذي أغضب الجليل حتى حلف ! ألم يصدقوه في قوله حتى ألجئوه إلى اليمين ؟ يا ويح الناس ! !

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الذاريات »

* * *



بين يدي السورة

* سورة الطور من السور المكية التي تعالج موضوع العقيدة الإسلامية ، وتبحث في أصول العقيدة وهي « الوحدانية ، الرسالة ، البعث والجزاء » .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن أهوال الآخرة وشدائدها ، وعما يلقاه الكافرون في ذلك الموقف الرهيب « موقف الحساب » وأقسمت على أن العذاب نازل بالكفار لا محالة ، لا يمنعه مانع ولا يدفعه دافع ، وكان القسم بأمور خمسة تنبيهاً على أهمية الموضوع .

* ثم تناولت الحديث عن المتقين وهم في جنات النعيم ، على سرر متقابلين ، وقد جمع الله لهم أنواع السعادة « الحور العين ، واجتماع الشمل بالذرية والبنين ، والتنعم والتلذذ بأنواع المآكل والمشارب من فواكه وثمار ، ولحوم متنوعة مما يشتهى ويستطاب » إلى غير ما هنالك من أنواع النعيم ، مما لا عينٌ رأت ، ولا أُذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

* ثم تحدثت عن رسالة محمد بن عبد الله صلوات الله عليه ، وأمرته بالتذكير والإنذار للكفرة الفجار ، غير عابىء بما يقوله المشركون وما يفتريه المفترون حول الرسالة والرسول ، فليس محمد ﷺ بإنعام الله عليه بالنبوة وإكرامه بالرسالة بكاهن ولا مجنون كما زعم المجرمون .

* ثم أنكرت السورة على المشركين مزاعمهم الباطلة في شأن نبوة محمد ﷺ ، وردَّت عليهم بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة التي تقصم ظهر الباطل ، وأقامت الدلائل على صدق رسالة محمد عليه السلام .

* وختمت السورة الكريمة بالتهكم بالكافرين وأوثانهم بطريق التوبيخ والتقريع ، وبينت شدة عنادهم ، وفرط طغيانهم ، وأمرت الرسول ﷺ بالصبر على تحمل الأذى في سبيل الله حتى يأتي نصر الله .

التسمية : سميت « سورة الطور » لأن الله تعالى بدأ السورة الكريمة بالقسم بجبل الطور الذي

كلَّم الله تعالى عليه موسى عليه السلام ، ونال ذلك الجبل من الأنوار والتجليات والفيوضات الإلهية ما جعله مكاناً وبقعةً مشرفة على سائر الجبال في بقاع الأرض .

* * *

قال الله تعالى : ﴿والطور * وكتاب مسطور . . إلى . . إنه هو البرُّ الرحيم﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٨) .

اللغة : ﴿رقٍّ﴾ الرَّق بالفتح والكسر جلد رقيق يكتب فيه وقال أبو عبيدة : الرقُّ الورق وفي الصحاح : الرقُّ بالفتح ما يكتب فيه وهو جلد رقيق[1] ﴿المسجور﴾ الموقد ناراً يقال : سجرت النار أي أوقدتها ﴿تمور﴾ مار الشيء يمور موراً إذا تحرك واضطرب ، وجاء وذهب، قال جرير :

وما زالت القتلى تمور دماؤها ... بدجلة حتى ماء دجلة أشكل[2]

﴿يُدعُّون﴾ يدفعون بشدة وعنف ، والدَّع : الدفع بشدة وإهانة ﴿ألتناهم﴾ أنقصناهم ﴿رهين﴾ محبوس ﴿السموم﴾ الريح الحارة النافذة في المسام .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾

التفسير : ﴿والطُّور * وكتابٍ مسطور﴾ أقسم تعالى بجبل الطور الذي كلَّم الله عليه موسى ، وأقسم بالكتاب الذي أنزله الله على خاتم رسله وهو القرآن العظيم المكتوب ﴿في رقٍّ﴾ أي في أديمٍ من الجلد الرقيق ﴿منشور﴾ أي مبسوط غير مطوي وغير مختوم عليه قال القرطبي : أقسم الله تعالى بالطور ـ وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى ـ تشريفاً له وتكريماً ، وتذكيراً لما فيه من الآيات ، وأقسم بالكتاب المسطور أي المكتوب وهو القرآن يقرأه المؤمنون من المصاحف ، ويقرأه الملائكة من اللوح المحفوظ ، وقيل يعني بالكتاب سائر الكتب المنزلة على الأنبياء لأن كل كتاب في رقٍّ ينشره أهله لقراءته ، والرقُّ ما رُقّق من الجلد ليكتب فيه[3] ﴿والبيت المعمور﴾ أي وأُقسم بالبيت المعمور الذي تطوف به الملائكة الأبرار ، وهو لأهل السماء كالكعبة المشرفة لأهل الأرض ، وفي حديث الإسراء (ثم رفع إليَّ البيت المعمور ، فقلت يا جبريل ما هذا ؟ قال : هذا البيت المعمور ، يدخله كلَّ يوم سبعون ألف ملك ، إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه آخر ما عليهم)[4] وقال ابن عباس : هو بيت في السماء السابعة حيال الكعبة ـ أي مقابلها وحذاءها ـ تعمره الملائكة ، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه[5] ﴿والسَّقف المرفوع﴾ أي والسماء العالية المرتفعة ، الواقفة بقدرة الله بلا عمد ، سمَّى السماء سقفاً لأنها للأرض كالسقف للبيت ودليله ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً﴾ وقال ابن عباس : هو العرش

---

(١) الصحاح مادة رقَّ . (٢) تفسير القرطبي ٦٣/١٧ .
(٣) تفسير القرطبي ٥٨/١٧ . (٤) أخرجه مسلم في صحيحه . (٥) مختصر ابن كثير ٣٨٨/٣ .

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾

وهو سقف الجنة ﴿والبحر المسجور﴾ أي والبحر المسجور الموقد ناراً يوم القيامة كقوله ﴿وإذا البحار سُجرت﴾ أي أضرمت حتى تصير ناراً ملتهبة تتأجج تحيط بأهل الموقف ﴿إن عذاب ربك لواقع﴾ هذا جواب القسم أي إن عذاب الله لنازل بالكافرين لا محالة قال ابن الجوزي : أقسم تعالى بهذه الأشياء الخمسة للتنبيه على ما فيها من عظيم قدرته على أن عذاب المشركين حق [1] ﴿ما له من دافع﴾ أي ليس له دافع يدفعه عنهم قال أبو حيان : والواو الأولى للقسم وما بعدها للعطف ، والجملة المقسم عليها هي ﴿إن عذاب ربك لواقع﴾ وفي إضافة العذاب للرب لطيفة إذ هو المالك والناظر في مصلحة العبد ، فإضافته إلى الرب وإضافته لكاف الخطاب أمانٌ له ﷺ وأن العذاب واقع بمن كذبه ، ولفظ واقع أشد من كائن ، كأنه مهيأ في مكان مرتفع فيقع على من حلَّ به [2] ﴿يومَ تمور السَّماء موراً﴾ أي تتحرك السماء وتضطرب اضطراباً شديداً من هول ذلك اليوم ﴿وتسيرُ الجبال سيراً﴾ أي تنسف نسفاً عن وجه الأرض فتكون هباءً منثوراً كقوله ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً﴾ قال الخازن : والحكمة في مور السماء وسير الجبال، الإنذارُ والإعلام بأن لا رجوع ولا عود إلى الدنيا ، وذلك لأن الأرض والسماء وما بينهما من الجبال والبحار وغيرَ ذلك إنما خلقت لعمارة الدنيا وانتفاع بني آدم بذلك ، فلما لم يبق لهم عودٌ إليها أزالها الله تعالى وذلك لخراب الدنيا وعمارة الآخرة [3] ﴿فويل يومئذٍ للمكذبين﴾ أي هلاك ودمار وشدة عذاب للمكذبين أرسلَ الله في ذلك اليوم الرهيب ﴿الذين هُم في خوضٍ يلعبون﴾ أي الذين هم في الدنيا يخوضون في الباطل غافلون ساهون عما يراد بهم ﴿يومَ يُدعُّون إلى نار جهنم دعًّا﴾ أي يوم يُدفعون إلى نار جهنم دفعاً بشدة وعنف قال في البحر : وذلك أن خزنة جهنم يغلون أيدي الكفار إلى أعناقهم ، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ، ويدفعون بهم دفعاً إلى النار على وجوههم وزجاً في أقفيتهم حتى يردوا إلى النار [4] ، فإذا دنوا منها قال لهم خزنتها ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾ أي هذه نار جهنم التي كنتم تهزءون وتكذبون بها في الدنيا ﴿أفسحرٌ هذا أمْ أنتُم لا تُبصرون﴾ أي وتقول لهم الزبانية تقريعاً وتوبيخاً : هل هذا الذي ترونه بأعينكم من العذاب سحرٌ ، أم أنتم اليوم عميٌ كما كنتم في الدنيا عمياً عن الخير والإيمان ؟ قال أبو السعود : وقوله تعالى ﴿أفسحرٌ هذا﴾ توبيخ لهم وتقريع حيث كانوا يسمون القرآن الناطق بالحق سحراً فكأنه قيل لهم : كنتم تقولون عن القرآن إنه سحر أفهذا

(١) زاد المسير ٨/ ٤٨ . (٢) البحر المحيط ٨/ ١٤٧ والآية فيها أهوال وشدائد ينخلع لها قلب المؤمن ، روي عن جبير بن مطعم أنه قال : قدمت المدينة لأسأل رسول الله ﷺ في أسارى بدر ، فوافيته يقرأ في صلاة المغرب ﴿والطور وكتاب مسطور .. إلى إنَّ عذاب ربك لواقع . ماله من دافع﴾ فكأنما صدع قلبي ، فأسلمت خوفاً من نزول العذاب ، وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب .
(٣) تفسير الخازن ٤/ ١٠٧ . (٤) البحر المحيط ٨/ ١٤٧ .

﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾

العذاب أيضاً سحر أم سُدَّت أبصاركم كما سدَّت في الدنيا[١] ؟ ﴿إصلـوها فاصبـروا أو لا تصبـروا﴾ أي قاسوا شدتها فاصبروا على العذاب أو لا تصبروا ، وهو توبيخ آخر ﴿ســواءٌ عليكـم﴾ أي يتساوى عليكم الصبر والجزع لأنكم مخلدون في جهنم أبداً ﴿إنمـا تُـجزون ما كنتـم تعملـون﴾ أي إنما تنالون جزاء أعمالكم القبيحة من الكفر والتكذيب ، ولا يظلم ربك أحداً . . ولما ذكر حال الكفرة الأشقياء ذكر حال المؤمنين السعداء على عادة القرآن الكريم في الجمع بين الترهيب والترغيب فقال ﴿إن المتقيـن فـي جناتٍ ونعيـم﴾ أي إن الذين اتقوا ربهم في الدنيا بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، هم في الآخرة في بساتين عظيمة ونعيم مقيم خالد ﴿فاكهيـن بمـا آتاهـم ربـهُـم﴾ أي متنعمين ومتلذذين بما أعطاهم ربهم من الخير والكرامة وأصناف الملاذ من مآكل ومشارب ، وملابس ومراكب ، وغير ذلك من ملاذ الجنة ﴿ووقاهـمْ ربُّهُـم عذاب الجحيـم﴾ أي وقد نجاهم ربهم من عذاب جهنم وصرف عنهم أهوالها قال ابن كثير : وتلك نعمة مستقلة بذاتها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة ، التي فيها من السرور ما لا عينٌ رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر[٢] ﴿كلـوا واشربـوا هنيئاً بمـا كنتـم تعملـون﴾ أي يقال لهم : كلوا واشربوا أكلاً وشرباً هنيئاً ، لا تنغيص فيه ولا كدر ، بسبب ما قدمتم من صالح الأعمال . . ثم أخبر تعالى عن حالهم عند أكلهم وشربهم فقال ﴿متكئيـنَ علـى سُـررٍ مصفوفـةٍ﴾ أي جالسين على هيئة المضطجع على سرر من ذهب مكلَّلة بالدر والياقوت ، مصطفة بعضها إلى جانب بعض ، قال ابن كثير : ﴿مصفوفـة﴾ أي وجوه بعضهم إلى بعض كقوله ﴿علـى سررٍ متقابليـن﴾[٣] وفي الحديث (إن الرجل ليتكىء المتكأ مقدار أربعين سنةً ما يتحـول عنـه ولا يملُّـه ، يأتيه ما اشتهـت نفسـه ولـذت عينـه)[٤] ﴿وزوجْناهــم بحُـورٍ عيـن﴾ أي وجعلنا لهم قرينات صالحات ، وزوجات حساناً من الحور العين ، وهنَّ نساء بيض واسعات العيون ـ من الحَوَر وهو شدة البياض ، والعينُ جمع عيناء وهي كبيرة العين ـ والبياضُ مع سعة العين نهاية الحسـن والجمال ﴿والـذيـن آمنـوا واتَّبعتهم ذُريتهـم بإيمـانٍ﴾ أي كانـوا مؤمنين وشاركهم أولادهم في الإيمان ﴿ألحقنـا بهـم ذُرِّيتهـم﴾ أي ألحقنا الأبناء بالآباء لتقرَّ بهم أعينهم وإن لم يبلغوا عملهم قال ابن عباس : إن الله عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كان لم

(١) تفسير أبي السعود على هامش الرازي ٧/ ٦٩٧ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٩٠ .
(٣) نفس المرجع السابق والصفحة . (٤) أخرجه ابن أبي حاتم .

﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

يبلغها بعمله لتقرَّبهم عينه وتلا الآية[1] قال الزمخشري : فيجمع الله لأهل الجنة أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم ، وبمزاوجة الحور العين ، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين ، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم[2] ﴿وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾ أي وما نقصنا الآباء من ثواب عملهم شيئاً قال في البحر : المعنى أنه تعالى يُلحق المقصِّر بالمحسن ولا ينقص المحسن من أجره شيئاً[3] ﴿كلُّ امرىءٍ بما كسب رهين﴾ أي كل إنسان مرتهن بعمله لا يُحمل عليه ذنب غيره سواء كان أباً أو إبناً وقال ابن عباس : ارتهن أهل جهنم بأعمالهم ، وصار أهل الجنة إلى نعيمهم[4] وقال الخازن : المراد بالآية الكافر أي كل كافر بما عمل من الشرك مرتهن بعمله في النار ، والمؤمن لا يكون مرتهناً بعمله لقوله تعالى ﴿كل نفسٍ بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين﴾[5] . . ثم ذكر ما وعدهم به من الفضل والنعمة فقال ﴿وأمددناهم بفاكهةٍ ولحمٍ مما يشتهون﴾ أي وزدناهم ـ فوق ما لهم من النعيم ـ بفواكه ولحوم من أنواع شتى مما يستطاب ويُشتهى ﴿يتنازعون فيها كأساً﴾ أي يتعاطون في الجنة كأساً من الخمر ، يتجاذبها بعضهم من بعض تلذذاً وتأنساً قال الألوسي : أي يتجاذبونها تجاذب ملاعبة كما يفعل ذلك الندامى في الدنيا لشدة سرورهم[6] ﴿لا لغوٌ فيها ولا تأثيم﴾ أي لا يقع بينهم بسبب شربها هذيان حتى يتكلموا بساقط الكلام ، ولا يلحقهم إثم كما يلحق شارب الخمر في الدنيا قال قتادة : نزّه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها ، فنفى عنها صُداع الرأس ، ووجع البطن ، وإزالة العقل ، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام الفارغ الذي لا فائدة فيه ، المتضمن للهذيان والفحش ، ووصفها بحسن منظرها ،وطيب طعمها، فقال ﴿بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غولٌ ولا هم عنها يُنزفون﴾[7] ثم قال تعالى ﴿ويطوفُ عليهم غلمانٌ لهم﴾ أي ويطوف عليهم للخدمة غلمان مماليك خصصهم تعالى لخدمتهم ﴿كأنهم لؤلؤٌ مكنون﴾ أي كأنهم في الحسن، والبياض ،والصفاء اللؤلؤ المصون في الصدف قال القرطبي : وهؤلاء الغلمان قيل هم أولاد المشركين وهم خدم أهل الجنة ، وليس في الجنة نصب ولا حاجة إلى خدمة ، ولكنه أخبر بأنهم على غاية النعيم[8] ﴿وأقبل بعضُهم على بعضٍ يتساءلون﴾ أي أقبل أهل الجنة يسأل بعضهم بعضاً عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا ، تلذذاً بالحديث ، واعترافاً بالنعمة ﴿قالوا إنّا كنا قبلُ في أهلنا مشفقين﴾ أي قال المسئولون : إنا كنا في دار الدنيا خائفين من ربنا ، مشفقين من عذابه وعقابه

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ٦٦ . (٢) تفسير الكشاف ٤/ ٢٧٢ .
(٣) البحر المحيط ٨/ ١٤٩ وهذا تأويل ابن عباس . (٤) القرطبي ١٧/ ٦٨ .
(٥) تفسير الخازن ٤/ ٢٠٨ . (٦) روح المعاني ٢٧/ ٣٤ .
(٧) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٩١ . (٨) تفسير القرطبي ١٧/ ٦٩ .

﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾

﴿فمنَّ اللهُ علينا ووقانا عذاب السَّموم﴾ أي فأكرمنا الله بالمغفرة والجنة ، وأجارنا مما نخاف ، وحمانا من عذاب جهنم النافذة في المسام نفوذ الريح الحارة الشديدة وهي التي تسمى ﴿السموم﴾ قال الفخر الرازي : والآية إشارة إلى أن أهل الجنة يعلمون ما جرى عليهم في الدنيا ويذكرونه ، وكذلك الكافر لا ينسى ما كان له من النعيم في الدنيا ، فتزداد لذة المؤمن حيث يرى نفسه انتقلت من الضيق إلى السعة ، ومن السجن إلى الجنة ، ويزداد الكافر ألماً حيث يرى نفسه انتقلت من النعيم إلى الجحيم[1] ﴿إنا كنَّا من قبلُ ندعوه﴾ أي قال أهل الجنة : إنا كنا في الدنيا نعبد الله ونتضرع إليه ، فاستجاب الله لنا فأعطانا سؤلنا ﴿إنه هو البرُّ الرحيم﴾ أي إنه تعالى هو المحسن ، المتفضل على عباده بالرحمة والغفران ، وهو كالتعليل لما سبق ، عن مسروق أن عائشة رضي الله عنها قرأت هذه الآية ﴿فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السموم * إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البرُّ الرحيم﴾ فقالت : اللهم مُنَّ علينا وقنا عذاب السموم إنك أنت البر الرحيم[2] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿فذكّر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون. . إلى . .فسبحه وإدبار النجوم﴾ من آية (٢٩) إلى آية (٤٩) نهاية السورة .

المناسَبَة : لما تقدم إقسام الله تعالى على وقوع العذاب بالكافرين ، وذكر أشياء من أحوال المعذبين والناجين ، أمر تعالى رسوله بالتذكير، إنذاراً للكافرين وتبشيراً للمؤمنين ، وختم السورة الكريمة ببيان عاقبة المكذبين ، وحفظ الله ورعايته لرسوله الكريم ﷺ

اللغَة : ﴿ريب المنون﴾ حوادث الدهر وصروفه ، والمنون هو الدهر قال أبو ذؤيب :

أمِنَ المنونِ وريْبه تتوجَّع والدَّهر ليس بمعتب من يجزع[3]

والمنون أيضاً الموتُ من المنِّ بمعنى القطع لأنه يقطع الأعمار ﴿أحلامهم﴾ عقولهم جمع حُلم وهو العقل ﴿المسيطرون﴾ المسيطر : المتسلط على الشيء ﴿كسفاً﴾ قطعة يقال : كسف بسكون السين وكسفة أي قطعة وجمعه كسف بفتح السين ﴿مركوم﴾ متجمع ومتراكم بعضه فوق بعض .

﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ۝٢٩﴾

التفسِير : ﴿فذكّر فما أنت بنعمة ربك﴾ أي فذكّر يا محمد بالقرآن قومك وعظهم به ، فما أنت بإنعام الله عليك بالنبوة وإكرامه لك بالرسالة ﴿بكاهنٍ ولا مجنون﴾ أي لست كاهناً تخبر بالأمور الغيبية من غير وحي ، ولا مجنوناً كما زعم المشركون، إنما تنطق بالوحي . . ثم أنكر عليهم

(١) التفسير الكبير للرازي ٧/ ٧٠٥ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٩٢ . (٣) زاد المسير ٨/ ٥٤ وانظر الصحاح للجوهري .

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾

مزاعمهم الباطلة في شأن الرسول فقال ﴿أم يقولون شاعرٌ نتربص به ريب المنون﴾ أي بل أيقول المشركون هو شاعر ننتظر به حوادث الدهر وصروفه حتى يهلك فنستريح منه ؟ قال الخازن : وريبُ المنون حوادث الدهر وصروفه ، وغرضهم أنه يهلك ويموت كما هلك من كان قبله من الشعراء ، والمنون اسم للموت وللدهر وأصله القطع ، سميا بذلك لأنهما يقطعان الأجل[1] ﴿قل تربصوا فإني معكم من المتربصين﴾ أي قل لهم يا محمد : انتظروا بي الموت فإني منتظر هلاككم كما تنتظرون هلاكي ، وهو تهكم بهم مع التهديد والوعيد ﴿أم تأمرهم أحلامُهم بهذا﴾ ؟ أي أم تأمرهم عقولهم بهذا الكذب والبهتان ؟ قال الخازن : وذلك أن عظماء قريش كانوا يوصفون بالأحلام والعقول ، فأزرى الله بعقولهم حين لم تثمر لهم معرفة الحق من الباطل[2] ، وهو تهكم آخر بالمشركين ﴿أم هم قوم طاغون﴾ أي بل هم قوم مجاوزون الحد في الكفر والطغيان ، والمكابرة والعناد ﴿أم يقولون تقوَّله﴾ أي أم يقولون إن محمداً اختلق القرآن وافتراه من عند نفسه قال القرطبي : والتقوُّل تكلف القول ، وإنما يستعمل في الكذب في غالب الأمر ، يقال : قوَّلتني ما لم أقل أي ادعيته عليَّ ، وتقوَّل عليه أي كذب عليه[3] ﴿بل لا يؤمنون﴾ أي ليس الأمر كما زعموا بل لا يصدقون بالقرآن استكباراً وعناداً ثم ألزمهم تعالى الحجة فقال ﴿فليأتوا بحديثٍ مثله إن كانوا صادقين﴾ أي فليأتوا بكلامٍ مماثلٍ للقرآن في نظمه وحسنه وبيانه ، إن كانوا صادقين في قولهم إن محمداً افتراه ، وهو تعجيزٌ لهم مع التوبيخ ﴿أم خُلقوا من غير شيء﴾ أي هل خُلقوا من غير ربٍ ولا خالق؟قال ابن عباس: من غير ربٍ خلقهم وقدَّرهم[4] ﴿أم هم الخالقون﴾ أي أم هم الخالقون لأنفسهم،حتى تجرءوا فأنكروا وجود الله جل وعلا؟ ﴿أم خلقوا السمواتِ والأرض﴾ أي أم هم خلقوا السموات والأرض ؟ وإنما خصَّ السمواتِ والأرض بالذكر من بين سائر المخلوقات لعظمها وشرفها ، ثم بيَّن تعالى السبب في إنكارهم لوحدانية الله فقال ﴿بل لا يوقنون﴾ أي بل لا يصدقون ولا يؤمنون بوحدانية الله وقدرته على البعث ولذلك ينكرون الخالق قال الخازن : ومعنى الآية هل خُلقوا من غير شيءٍ خلقهم فوجدوا بلا خالق وذلك مما لا يجوز أن يكون ، لأن تعلق الخلق بالخالق ضروري ، فإن أنكروا الخالق لم يجز أن يوجدوا بلا خالق ، أم هم الخالقون لأنفسهم ؟ وذلك في البطلان أشدُّ ، لأن ما لا وجود له كيف يخلق ؟ فإذا بطل الوجهان قامت الحجة

(١) تفسير الخازن ٤/ ٢٠٩ . (٢) نفس المرجع السابق والصفحة . (٣) تفسير القرطبي ١٧/ ٧٣ . (٤) تفسير القرطبي ١٧/ ٧٤ .

أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾

عليهم بأن لهم خالقاً فليؤمنوا به، وليوحدوه، ولْيعبدوه، ولْيوقنوا أنه ربهم وخالقهم[1] ﴿أم عندهم خزائن ربك﴾ ؟ أي أعندهم خزائن رزق الله ورحمته حتى يعطوا النبوة من شاءوا ويمنعوها عمن شاءوا ؟ قال ابن عباس : ﴿خزائن ربك﴾ المطر والرزقُ وقال عكرمة : النبوة[2] ﴿أم هم المسيطرون﴾ ؟ أي أم هم الغالبون القاهرون حتى يتصرفوا في الخلق كما يشاءون ؟ لا بل الله عز وجل هو الخالق المالك المتصرف وقال عطاء : ﴿أم هم المسيطرون﴾ أم هم الأرباب فيفعلون ما يشاءون ولا يكونون تحت أمر ولا نهي[3] ؟ ﴿أم لهم سُلَّم يستمعون فيه﴾ ؟ أي أم لهم مرقى ومصعد إلى السماء يستمعون فيه كلام الملائكة والوحي فيعلمون أنهم على حقٍّ فهم به مستمسكون ؟ ﴿فليأتِ مستمعهم بسلطانٍ مبين﴾ أي فليأت من يزعم ذلك بحجة بينة واضحة على صدق استماعه كما أتى محمد بالبرهان القاطع . . ثم وبخهم تعالى على ما هو أشنع وأقبح من تلك المزاعم الباطلة وهو نسبتهم إلى الله البنات ، وجعلهم لله جل وعلا ما يكرهون لأنفسهم فقال ﴿أم له البنات ولكم البنون﴾ ؟ أي كيف تجعلون لله البنات ـ مع كراهتكم لهن ـ وتجعلون لأنفسكم البنين ؟ أهذا هو المنطق والإنصاف ؟ قال القرطبي : سفَّه أحلامهم توبيخاً لهم وتقريعاً والمعنى أتضيفون إلى الله البنات مع أنفتكم منهن ، ومن كان عقله هكذا فلا يُستبعد منه إنكار البعث[4] وقال أبو السعود : تسفيهٌ لهم وتركيكٌ لعقولهم ، وإيذانٌ بأن من هذا رأيه لا يكاد يُعد من العقلاء ، فضلاً عن الترقي إلى عالم الملكوت ، والاطلاع على الأسرار الغيبية ، والالتفات إلى الخطاب لتشديد الإنكار والتوبيخ[5] ﴿أمْ تسألُهم أجراً﴾ أي هل تسألهم يا محمد أجراً على تبليغ الرسالة وتعليم أحكام الدين ؟ ﴿فهم من مغرم مُثقلون﴾ أي فهم بسبب ذلك الأجر والغُرم الثقيل الذي أوجبته عليهم مجهدون ومتعبون فلذلك يزهدون في اتباعك ، ولا يدخلون في الإسلام ؟ فإن العادة أن من كلف إنساناً مالاً وضربَ عليه جُعلاً يصير مثقلاً وغارماً بسببه فيكرهه ولا يسمع قوله ولا يمتثله ﴿أم عندهم الغيبُ فهم يكتبون﴾ ؟ أي أعندهم علم الغيب حتى يعلموا أنَّ ما يخبرهم به الرسولﷺ من أمور الآخرة والحشر والنشر باطلٌ فلذلك يكتبون هذه المعلومات عن معرفةٍ ويقين ؟ قال قتادة : هو ردٌّ لقولهم ﴿شاعر نتربص به ريب المنون﴾ والمعنى أعَلموا أن محمداً يموتُ قبلهم حتى يحكموا بذلك[6] ؟ وقال ابن عباس . أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ، ويُخبرون الناس بما فيه[7] ؟ ليس الأمر كذلك فإنه لا يعلم أحدٌ من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله ﴿أم يريدون كيداً﴾ ؟ أي أيريد

(١) تفسير الخازن ٤/ ٢١٠ . (٢) تفسير القرطبي ١٧/ ٧٤ . (٣) تفسير ابن الجوزي ٨/ ٥٧ . (٤) تفسير القرطبي ١٧/ ٧٦ .
(٥) تفسير أبي السعود ٥/ ١٧٥ . (٦) تفسير ابن الجوزي ٨/ ٥٨ . (٧) تفسير القرطبي ١٧/ ٧٦ .

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾

هؤلاء المجرمون أن يتآمروا عليك يا محمد ؟ قال المفسرون : والآية إشارة إلى كيدهم في دار الندوة وتآمرهم على قتل الرسولﷺ كما قال تعالى ﴿وإذْ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك﴾ ﴿فالذين كفروا هم المكيدون﴾ أي فالذين جحدوا رسالة محمد هم المجزيون بكيدهم لأن ضرر ذلك عائد عليهم ، ووباله راجع على أنفسهم كقوله ﴿ولا يحيق المكرُ السيء إلا بأهله﴾ قال الصاوي : وأوقع الظاهر ﴿فالذين كفروا﴾ موقع المضمر تشنيعاً وتقبيحاً عليهم بتسجيل وصف الكفر[1] ﴿أم لهم إلهٌ غيرُ اللهِ﴾ ؟ أي ألهم إله خالق رازق غير الله تعالى حتى يلجأوا إليه وقت الضيق والشدة ؟ ويستنجدوا به لدفع الضرِّ والعذاب عنهم ؟ ﴿سبحان اللهِ عمّا يشركون﴾ أي تنزَّه وتقدَّس الله عما يشركون به من الأوثان والأصنام قال الإمام الجلال : والاستفهام بـ « أم » في مواضعها الخمسة عشر للتوبيخ والتقريع والإنكار[2] . . ثم أخبر تعالى عن شدة طغيانهم وفرط عنادهم فقال ﴿وإن يروا كِسفاً من السَّماء ساقطاً﴾ أي لو عذبناهم بسقوط قطع من السماء نزلت عليهم لم ينتهوا ولم يرجعوا ، ولقالوا في هذا النازل عناداًواستهزاءً :إنه سحاب مركوم ﴿ ويقولوا سحابٌ مركوم﴾ أي إنه سحاب متراكم بعضُه فوق بعض قد سقط علينا قال أبو حيان : كانت قريشٌ قد اقترحت على رسول اللهﷺ فيما اقترحت من قولهم ﴿أو تُسقط السماء كما زعمت علينا كِسفاً﴾ فأخبر تعالى أنهم لو رأوا ذلك عياناً حسب اقتراحهم لبلغ بهم عتوهم وجهلهم أن يغالطوا أنفسهم فيما عاينوه ويقولوا : هو سحابٌ مركوم أي سحاب تراكم بعضه فوق بعض ممطرنا ، وليس بكسفٍ ساقطٍ للعذاب[3] ﴿فذرهُم حتى يُلاقوا يومهم الذي فيه يُصعقون﴾ أي اتركهم يا محمد يتمادون في غيهم وضلالهم ،حتى يلاقوا ذلك اليوم الرهيب ـ يوم القيامة ـ الذي يأتيهم فيه من العذاب ما يزيل عقولهم ويسلب ألبابهم ﴿يوم لا يُغني عنهم كيدهم شيئاً﴾ أي يوم لا ينفعهم كيدهم ولا مكرهم الذي استعملوه في الدنيا ولا يدفع عنهم شيئاً من العذاب ﴿ولا هم يُنصرون﴾ أي ولا هميُمنعون من عذاب الله في الآخرة ﴿وإنَّ للَّذين ظلموا عذاباً دون ذلك﴾ أي وإن للذين كفروا عذاباً شديداً في الدنيا قبل عذاب الآخرة قال ابن عباس : هو عذاب القبر وقال مجاهد : هو الجوع والقحط سبع سنين[4] ﴿ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون﴾ أي لا يعلمون أن العذاب نازل بهم ﴿واصبر لحكم ربك﴾ أي اصبرْ يا محمد على قضاء ربك وحكمه، فيما حَمَّلك به من أعباء الرسالة ﴿فإنك بأعيننا﴾ أي فإنك بحفظنا وكلاءتنا نحرسك ونرعاك ﴿وسبِّح بحمد ربك حين تقوم﴾ أي ونزِّه ربك

(١) حاشية الصاوي ٤/ ١٣٤ . (٢) تفسير الجلالين ٤/ ٢٢١ . (٣) تفسير البحر المحيط ٨/ ١٥٣ . (٤) البحر المحيط ٨/ ١٥٣ .

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾

عما لا يليق به من صفات النقص حين تقوم من منامك ومن كل مجلس بأن تقول : سبحان الله وبحمده قال ابن عباس : أي صلِّ للهِ حين تقومُ من منامك[١] ﴿ومـن الليـل فسبِّحه﴾ أي ومن الليل فاذكره واعبده بالتلاوة والصلاة والناسُ نيام كقوله ﴿ومـن الليل فتهجَّد به نافلةً لك﴾ ﴿وإدبار النجـوم﴾ أي وصلِّ له في آخر الليل حين تدبر وتغيب النجوم بضوء الصبح قال ابن عباس : هما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر وفي الحديث (ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها)[٢] .

البَـلاَغَـة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ جناس الاشتقاق ﴿تمور السماء موراً﴾ و﴿تسير الجبال سيراً﴾ .

٢ ـ الإهانة والتوبيخ ﴿إصلوها فاصبروا أو لا تصبروا﴾ وبين قولـه ﴿اصبـروا﴾ وقولـه ﴿أو لا تصبروا﴾ طباق السلب وهو من المحسنات البديعية .

٣ ـ التشبيه المرسل المجمل ﴿كأنهم لؤلؤٌ مكنون﴾ حذف منه وجه الشبه فهو مجمل .

٤ ـ الاستعارة التبعيـة ﴿ريب المنون﴾ شبهت حوادث الدهر بالريب الذي هو الشك بجامع التحير وعدم البقاءِ على حالة واحدة في كلٍ منهما واستعير لفظ الريب لصروف الدهر ونوائبه بطـريق الاستعارة التبعية .

٥ ـ الأسلوب التهكمي ﴿أم تأمرهم أحلامهم بهذا﴾ ؟ هذا بطريق التهكم والسخرية بعقولهم .

٦ ـ الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التوبيخ والتقريع لهم ﴿أم له البنات ولكم البنون﴾ ؟ .

٧ ـ أسلوب الفرض والتقدير ﴿وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً﴾ أي لو رأوا ذلك لقالوا ما قالوا .

٨ ـ السجع الرصين غير المتكلف مثل ﴿والطور وكتاب مسطور في رقٍّ منشور﴾ ومثل ﴿إن عذاب ربك لواقع . ما له من دافع﴾ وهلم جراً .

فَـائِـدَة : عن جبير بن مطعم قال : قدمتُ المدينة لأسأل رسول اللهﷺ في أسـارى بدر ، فوافيتُه يقرأ في صلاة المغرب ﴿والطور وكتاب مسطور . .﴾ فلما قرأ ﴿إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع﴾ فكأنما صُدع قلبي ، فأسلمتُ خوفاً من نزول العذاب ، فلما انتهى إلى هذه الآية ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون﴾ كاد قلبي أن يطير .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الطور »

(١) تفسير ابن الجوزي ٨/ ٦١ . (٢) المختصر ٣/ ٣٩٥ .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة النجم مكية وهي تبحث عن موضوع الرسالة في إطارها العام ، وعن موضوع الإيمان بالبعث والنشور شأن سائر السور المكية .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن موضوع « المعراج » الذي كان معجزة لرسول الإنسانية محمد بن عبد الله صلوات الله عليه ، والذي رأى فيه الرسول الكريم عجائب وغرائب في ملكوت الله الواسع مما يدهش العقول ويحيّر الألباب ، وذكّرت الناس بما يجب عليهم من الإيمان والتصديق، وعدم المجادلة والمماراة في مواضيع الغيب والوحي .

* ثم تلاها الحديث عن الأوثان والأصنام التي عبدها المشركون من دون الله ، وبينت بطلان تلك الآلهة المزعومة ، وبطلان عبادة غير الله ، سواء في ذلك عبادة الأصنام أو عبادة الملائكة الكرام .

* ثم تحدثت عن الجزاء العادل يوم الدين ، حيث تجزى كل نفس بما كسبت ، فينال المحسن جزاء إحسانه ، والمسيء جزاء إساءته ، ويتفرق الناس إلى فريقين : أبرار ، وفجار .

* وقد ذكرت برهاناً على الجزاء العادل بأن كل إنسان ليس له إلا عمله وسعيه ، وأنه لا تحمل نفسٌ وزر أخرى ، لأن العقوبة لا تتعدى غير المجرم ، وهو شرع الله المستقيم ، وحكمه العادل الذي بينه في القرآن العظيم ، وفي الكتب السماوية السابقة .

* وذكرت السورة الكريمة آثار قدرة الله جل وعلا في الإحياء والإماتة ، والبعث بعد الفناء ، والإغناء والإفقار ، وخلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى .

* وختمت السورة الكريمة بما حلَّ بالأمم الطاغية كقوم عاد ، وثمود ، وقوم نوح ولوط ، من أنواع العذاب والدمار ، تذكيراً لكفار مكة بالعذاب الذي ينتظرهم بتكذيبهم لرسول الله ﷺ ، وزجراً لأهل البغي والطغيان عن الاستمرار في التمرد والعصيان .

* * *

قال الله تعالى : ﴿والنجم إذا هـوى * ما ضل صاحبكـم وما غوى . .إلى . . هو أعلم بمن اتقى﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٣٢) .

اللغـــة : ﴿هوى﴾ هوى يهوي إذا سقط إلى أسفل ﴿مِرَّة﴾ المِرَّة بكسر الميم القوة قال قطرب : تقول العرب لكل جزل الرأي حصيف العقل : ذو مرَّة[1] ﴿تدلَّى﴾ التدلي : الامتداد من أعلى إلى أسفل يقال : تدلّى الغصن إذا امتد نحو الأسفل ﴿قاب﴾ قدر قال في البحر : القابُ والقاد والقيد : المقدار[2] ﴿ضيزى﴾ جائرة مائلة عن الحق يقال : ضاز في الحكم أي جار ، وضازه حقه أي بخسه قال الشاعر :

ضـازت بنـو أسـدٍ بحكمهـم إذْ يجعلـون الـرأس كالذَنَـب

﴿اللَّمَـم﴾ الصغائر من الذنوب قال الزجاج : أصل اللَّمم ما يعمله الإنسان المرَّة بعد المرة ولا يقيم عليه يقال : ما فعلتُه إلا لمماً ولِماماً ﴿أجنة﴾ جمع جنين وهو الولد ما دام في البطن سمي جنيناً لاستتاره .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦)

التفسيـر : ﴿والنَّجـم إذا هـوَى﴾ أي أقسمُ بالنجم وقت سقوطه من علو قال ابن عباس : أقسم سبحانه بالنجوم إذا انقضَّت في إثر الشياطين حين استراقها السمع[3] وقال الحسن : المراد في الآية النجوم إذا انتثرت يوم القيامة كقوله ﴿وإذا الكواكب انتثرت﴾ قال ابن كثير : الخالق يُقسم بما شاء من خلقه ، والمخلوق لا ينبغي أن يُقسم إلا بالخالق[4] ﴿مـا ضـلَّ صاحبكُـم﴾ أي ما ضلَّ محمدٌ عن طريق الهداية ، ولا حاد عن نهج الاستقامة ﴿ومـا غـوى﴾ أي وما اعتقد باطلاً قط بل هو في غاية الهـدى والرشد قال أبو السعود : والخطاب لكفار قريش ، والتعبير بلفظ ﴿صاحبكم﴾ للإيذان بوقوفهـم على تفاصيل أحواله ، فإن طول صحبتهم له ، ومشاهدتهم لمحاسن أوصافه العظيمة مقتضيةٌ ذلك[5] ﴿ومـا ينطـقُ عـن الهـوى﴾ أي لا يتكلمﷺ عن هوى نفسي ورأي شخصي ﴿إن هـو إلا وحيٌ يوحى﴾ أي لا يتكلم إلا عن وحيٍ من الله عزَّ وجل قال البيضاوي : أي ما القرآن إلا وحيٌ يوحيه الله إليه[6] ﴿علَّمـه شديـد القُـوى﴾ أي علَّمه القرآن ملكٌ شديدٌ قواه وهو جبريل الأمين قال المفسرون : ومما يدل على شدة قوته أنه قلع قرى قوم لوط وحملها على جناحه حتى بلغ بها السماء ثم قلبها ، وصاح بثمود فأصبحـوا خامدين ، وكان هبوطه بالوحي على الأنبياء أو صعوده في أسرع من رجعة الطرف ﴿ذو مِرَّة فاستـوى﴾

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ٨٦ . (٢) البحر المحيط ٨/ ١٥٤ . (٣) هذه إحدى الروايات عن ابن عباس ، وعنه أن المراد بالنجم الثريا إذا سقطت مع الفجر . (٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٣/ ٣٩٦ . (٥) تفسير أبي السعود ٥ . (٦) تفسير البيضاوي ٤/ ١٧١ .

وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾

أي ذو حصافة في العقل ، وقوةٍ في الجسم ، فاستقرَّ جبريل على صورته الحقيقية ﴿وهو بالأُفُق الأعلى﴾ أي وهو بأفق السماء حيث تطلع الشمس جهة المشرق قال ابن عباس : المراد بالأفق الأعلى مطلع الشمس[1] قال الخازن : كان جبريل يأتي رسول الله ﷺ في صورة الآدميين كما كان يأتي الأنبياء قبله ، فسأله رسول الله ﷺ أن يريه نفسه على صورته التي جُبل عليها ، فأراه نفسه مرتين مرةً في الأرض ، ومرة في السماء ، فأما التي في الأرض فبالأفق الأعلى أي جانب المشرق حيث كان رسول الله ﷺ بحراء فطلع عليه جبريل من ناحية المشرق وفتح جناحيه فسدَّ ما بين المشرق والمغرب ، فخرَّ رسول الله ﷺ مغشياً عليه ، فنزل جبريل في صورة الآدميين فضمَّه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه وهو قوله ﴿ثم دنا فتدلى﴾ وأما التي في السماء فعند سدرة المنتهى ، ولم يره أحدٌ من الأنبياء على صورته الملكية التي خُلق عليها إلا نبينا محمد ﷺ[2] ﴿ثم دنا فتدلَّى﴾ أي ثم اقترب جبريل من محمد وزاد في القرب منه ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ أي فكان منه على مقدار قوسين أو أقل قال الألوسي : والمراد إفادة شدة القرب فكأنه قيل : فكان قريباً منه[3] ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ أي فأوحى جبريل إلى عبد الله ورسوله محمد ﷺ ما أوحى إليه من أوامر الله عز وجل ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ أي ما كذب قلب محمد ما رآه ببصره من صورة جبريل الحقيقية قال ابن مسعود : رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح ، كل جناحٍ منها قد سدَّ الأفق ، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما اللهُ به عليم[4] ﴿أفتمارونه على ما يرى﴾ ؟ أي أفتجادلونه يا معشر المشركين على ما رأى ليلة الإسراء والمعراج ؟ قال في البحر : كانت قريش حين أخبرهم ﷺ بأمره في الإسراء كذبوا واستخفوا حتى وصف لهم ﷺ بيت المقدس ، والجمهور على أن المرئي مرتين هو جبريل ، وعن ابن عباس وعكرمة أن الرسول ﷺ رأى ربه بعيني رأسه ، وأنكرت ذلك عائشة وقالت إنه رأى جبريل في صورته مرتين ثم قال أبو حيان : والصحيح أن جميع ما في هذه الآيات هو مع جبريل بدليل قوله تعالى ﴿ولقد رآه نزلةً أخرى﴾ فإنه يقتضي مرة متقدمة[5] ﴿ولقد رآه نزلةً أخرى﴾ أي رأى الرسول جبريل في صورته الملكية مرةً أخرى ﴿عند سدرة المنتهى﴾ أي عند سدرة المنتهى التي هي في السماء السابعة قرب العرش قال المفسرون : والسدرة شجرة النَّبق تنبع من أصلها الأنهار ، وهي عن يمين العرش ، وسميت سدرة المنتهى لأنه ينتهي إليها علم الخلائق وجميع الملائكة ، ولا يعلم أحدٌ ما وراءها إلا الله جل وعلا وفي الحديث (ثم صُعد بي إلى السماء السابعة ، ورفعت إليَّ سدرة المنتهى ، فإذا نبقها - أي ثمرها - مثل قلال هجر ، وإذا

---

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ٨٨ . (٢) تفسير الخازن ٤/ ٢١٣ . (٣) تفسير الألوسي ٢٧/ ٤٨ . (٤) أخرجه الإمام أحمد .

(٥) البحر المحيط ٨/ ١٥٨ أقول : ما ذكره صاحب البحر قويٌ من حيث الدلالة ، ومذهب أهل السنة أن النبي ﷺ رأى ربه ليلة المعراج في السموات العلى رؤية بصرية ، ولهم أدلة من السنة النبوية ، أمَّا الآيات الكريمة فالراجح ما قاله الجمهور ، والله أعلم .

عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾

أوراقها كآذان الفيلة . .)[١] ﴿عندها جنة المأوى﴾ أي عند سدرة المنتهى الجنة التي تأوي إليها الملائكة وأرواح الشهداء والمتقين ﴿إذْ يغشى السِّدرة ما يغشى﴾ أي رآه وقت ما يغشى السدرة ما يغشى من العجائب قال الحسن : غشيها نور رب العالمين فاستنارت وقال ابن مسعود : غشيها فراش من ذهب[٢] وفي الحديث (لما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيَّرت ، فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسنها)[٣] قال المفسرون : رأى عليه السلام شجرة سدرة المنتهى وقد غشيتها سبحات أنوار الله عز وجل ، حتى ما يستطيع أحد أن ينظر إليها ، وغشيتها الملائكة أمثال الطيور يعبدون الله عندها ، يجتمعون حولهامسبِّحين وزائرين كما يزور الناس الكعبة وفي الحديث (رأيت السدرة يغشاها فراش من ذهب ، ورأيت على كل ورقة ملكاً قائماً يسبح الله تعالى)[٤] ﴿ما زاغَ البصر﴾ أي ما مال بصر النبي ﷺ في ذلك المقام وفي تلك الحضرة يميناً وشمالاً ﴿وما طغَى﴾ أي وما جاوز الحدَّ الذي رأى قال القرطبي : أي لم يمدَّ بصره إلى غير ما رأى من الآيات ، وهذا وصف أدب النبيﷺ في ذلك المقام إذ لم يلتفت يميناً ولا شمالاً[٥] وقال الخازن : لما تجلَّى رب العزة وظهر نوره ، ثبتﷺ في ذلك المقام العظيم الذي تحار فيه العقول ، وتزلُّ فيه الأقدام ، وتميل فيه الأبصار[٦] ﴿لقد رآى مِنْ آياتِ ربه الكُبرى﴾ أي والله لقد رأى محمد ـ ليلة المعراج ـ عجائب ملكوت الله ، رأى سدرة المنتهى ، والبيت المعمور ، والجنة والنار ، ورأى جبريل في صورته التي يكون عليها في السموات له ستمائة جناح ، ورأى رفرفاً أخضر من الجنة قد سدَّ الأفق[٧] ، وغير ذلك من الآيات العظام قال الفخر : وفي الآية دليلٌ على أن النبيﷺ رأى ليلة المعراج آياتِ الله ولم يرَ الله كما قال البعض ، ووجهه أن الله ختم قصة المعراج برؤ ية الآيات ، وقال في الإسراء ﴿لنريه من آياتنا﴾ ولو كان رأى ربه لكان ذلك أعظم ما يمكن ولأخبر تعالى به[٨] ﴿أفرأيتم اللاتَ والعُزَّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ أي أخبرونا يا معشر الكفار عن هذه الآلهة التي تعبدونها « اللات والعزى ومناة » هل لها من القدرة والعظمة التي وُصف بها رب العزة شيء حتى زعمتم أنها آلهة ؟ قال الخازن : هذه أسماء أصنام اتخذوها آلهة يعبدونها ، واشتقوا لها أسماء من أسماء الله عز وجل فقالوا من الله اللات ، ومن العزيز العُزَّى ، وكانت اللات بالطائف ، والعُزَّى بغطفان وقد حطمها خالد بن الوليد ، ومناة صنم لخزاعة يعبده أهل مكة[٩] ﴿ألكم الذَّكر وله الأنثى﴾ ؟ توبيخٌ وتقريع أي ألكم يا معشر المشركين النوع المحبوب من الأولاد وهو الذكر ، وله تعالى النوع المذموم بزعمكم وهو الأنثى ؟

---

(١) جزء من حديث أخرجه الشيخان . (٢) الحديث رواه مسلم . (٣) أخرجه مسلم أيضاً .
(٤) تفسيرأبي السعود ١٥٧/٥ (٥) تفسير القرطبي ٩٨/١٧. (٦) تفسير الخازن ٢١٦/٤ .
(٧) رؤ يته ﷺ للرفرف الأخضر الذي سد الأفق أخرجها البخاري عن ابن مسعود .
(٨) التفسير الكبير ٧٤٠/٧ . (٩) تفسير الخازن ٢١٨/٤ .

تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم

﴿تلك إذاً قسمةٌ ضيزَى﴾ أي تلك القسمة قسمة جائرة غير عادلة حيث جعلتم لربكم ما تكرهونه لأنفسكم قال الرازي : إنهم ما قالوا لنا البنون وله البنات ، وإنما نسبوا إلى الله البنات وكانوا يكرهونهن كما قال تعالى ﴿ويجعلون للهِ ما يكرهون﴾ فلما نسبوا إلى الله البنات حصل من تلك النسبة قسمة جائرة[1] ﴿إن هي إلاّ أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم﴾ أي ما هذه الأوثان إلا أسماء مجردة لا معنى تحتها لأنها لا تضر ولا تنفع ، سميتموها آلهة أنتم وآباؤكم وهي مجرد تسميات ألقيت على جمادات ﴿ما أنزل اللهُ بها من سلطان﴾ أي ما أنزل الله بها من حجة ولا برهان ﴿إنْ يتبعون إلا الظنَّ وما تهوى الأنفسُ﴾ أي ما يتبعون في عبادتها إلا الظنون والأوهام ، وما تشتهيه أنفسهم مما زينه لهم الشيطان ﴿ولقد جاءهم من ربِّهم الهدى﴾ أي والحال أنه قد جاءهم من ربهم البيان الساطع ، والبرهان القاطع على أن الأصنام ليست بآلهة ، وأن العبادة لا تصلح إلا لله الواحد القهار قال ابن الجوزي : وفيه تعجيبٌ من حالهم إذ لم يتركوا عبادتها بعد وضوح البيان[2] ﴿أم للإنسان ما تمنَّى﴾ أي ليس للإنسان كل ما يشتهي حتى يطمع في شفاعة الأصنام قال الصاوي : والمراد بالإنسان الكافر ، وهذه الآية تجر بذيلها على من يلتجىء لغير الله طلباً للفاني ، ويتبع هوى نفسه فيما تطلبه فليس له ما يشتهي ، واتباعُ الهوى هوان[3] ﴿فللهِ الآخرةُ والأولى﴾ أي فالملك كله لله يعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، لأنه مالك الدنيا والآخرة ، وليس الأمر كما يشتهي الإنسان ، بل هو تعالى يعطي من اتبع هداه وترك هواه . . ثم أكَّد هذا المعنى بقوله ﴿وكمْ من ملك في السموات﴾ أي وكثير من الملائكة الأبرار الأطهار المنبثين في السموات ﴿لا تغني شفاعتهم شيئاً﴾ أي أن الملائكة مع علو منزلتهم ورفعة شأنهم لا تنفع شفاعتهم أحداً إلا بإذن الله ، فكيف تشفع الأصنام مع حقارتها ؟ ! ﴿إلاَّ من بعد أن يأذن اللهُ لمن يشاء ويرضى﴾ أي إلا من بعد أن يأذن تعالى في الشفاعة لمن يشاء من أهل التوحيد والإيمان ويرضى عنه كقوله تعالى ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ قال ابن كثير : فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين ، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة الأصنام والأنداد عند الله تعالى[4] ؟ ثم أخبر تعالى عن ضلالات المشركين فقال ﴿إنَّ الذين لا يُؤمنون بالآخرة﴾ أي لا يصدقون بالبعث والحساب ﴿ليُسمُّون الملائكة تسمية الأُنثى﴾ أي ليزعمون أنهم إناثٌ وأنهم بناتُ الله ﴿وما لهم به من علم﴾ أي لا علم لهم بما

(١) التفسير الكبير ٧/ ٧٤٣ . (٢) تفسير ابن الجوزي ٨/ ٧٤ .
(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ١٣٩ . (٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٠١ .

بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ

يقولون أصلاً ، لأنهم لم يشاهدوا خلق الملائكة ، ولا جاءهم عن الله حجة أو برهان ﴿إن يتبعون إلا الظنّ﴾ أي ما يتبعون في هذه الأقوال الباطلة إلا الظنون والأوهام ﴿وإنَّ الظنَّ لا يُغني من الحقِّ شيئاً﴾ أي وإن الظنَّ لا يجدي شيئاً ، ولا يقوم أبداً مقام الحق ﴿فأعْرِض عمَّن تولَّى عن ذِكْرِنا﴾ أي فأعرض يا محمد عن هؤلاء المشركين الذين استنكفوا عن الإيمان والقرآن ﴿ولم يُرِد إلا الحياة الدنيا﴾ أي وليس له همٌّ إلا الدنيا وما فيها من النعيم الزائل ، والمتعة الفانية قال أبو السعود : والمراد النهيُ عن دعوة المعرض عن كلام الله وعدم الاعتناء بشأنه ، فإن من أعرض عما ذكر ، وانهمك في الدنيا بحيث صارت منتهى همته وقصاري سعيه ، لا تزيده الدعوة إلا عناداً وإصراراً على الباطل[١] ﴿ذلك مبلغهم من العِلم﴾ أي ذلك نهاية علمهم وغاية إدراكهم أن آثروا الدنيا على الآخرة ﴿إنَّ ربَّك هُو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى﴾ أي هو عالم بالفريقين : الضالين والمهتدين ويجازيهم بأعمالهم ﴿ولله ما في السموات والأرض﴾ أي له كل ما في الكون خلقاً وملكاً وتصرفاً ليس لأحدٍ من ذلك شيء أصلاً ﴿ليجزيَ الَّذين أساءوا بما عمِلوا﴾ أي ليجازي المسيء بإساءته ﴿ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾ أي وليجازي المحسن بالجنة جزاء إحسانه قال ابن الجوزي : والآية إخبارٌ عن قدرته وسعة ملكه ، وهو كلام معترض بين الآية الأولى وبين قوله ﴿ليجزي الذين أساءوا﴾ لأنه إذا كان أعلم بالمسيء وبالمحسن جازى كلاً بما يستحقه ، وإنما يقدر على مجازاة الفريقين إذا كان واسع الملك[٢] .. ثم ذكر تعالى صفات المتقين المحسنين فقال ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم﴾ أي يبتعدون عن كبائر الذنوب كالشرك والقتل وأكل مال اليتيم ﴿والفواحش﴾ أي ويبتعدون عن الفواحش جمع فاحشة وهي ما تناهى قبحها عقلاً وشرعاً كالزنى ونكاح زوجة الأب لقوله تعالى ﴿ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة﴾ وقوله ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً﴾ ﴿إلاَّ اللَّمم﴾ أي إلا ما قلَّ وصغر من الذنوب قال القرطبي : وهي الصغائر التي لا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله كالقبلة والغمزة والنظرة[٣] وفي الحديث (إن الله عز وجل كتب على ابن آدم حظه من الزنى ، أدرك ذلك لا محالة ، فزنى العينين النظر ، وزنى اللسانِ النطقُ ، والنفسُ تتمنى وتشتهي ، والفرج يصدِّق ذلك أو يكذبه)[٤] فإذا اجتنب العبد كبائر الذنوب غفر الله بفضله وكرمه الصغائر لقوله تعالى

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ١٦٠ . (٢) تفسير ابن الجوزي ٨/ ٧٥ . (٣) تفسير القرطبي ١٧/ ١٠٦ . (٤) أخرجه البخاري ومسلم .

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾

﴿إن تجتنبوا كبائر ما تُنهون عنه نكفِّر عنكم سيئاتكم﴾ يعني الصغائر[1] ﴿إنَّ ربَّك واسِعُ المغفرة﴾ أي هو تعالى غفار الذنوب ستار العيوب ، يغفر لمن فعل ذلك ثم تاب قال ابن كثير : أي رحمته وسعت كل شيء ، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها[2] قال البيضاوي : ولعله عقَّب به وعيد المسيئين ووعد المحسنين ، لئلا ييأس صاحب الكبيرة من رحمته ، ولا يتوهم وجوب العقاب على الله تعالى[3] ﴿هو أعلمُ بكم إذْ أنشأكُم من الأرض﴾ أي هو جل وعلا أعلم بأحوالكم منكم قبل أن يخلقكم ، ومن حين أن خلق أباكم آدم من التراب ﴿وإذْ أنتمْ أجنَّةٌ في بُطون أُمَّهاتكم﴾ أي ومن حين أن كنتم مستترين في أرحام أُمهاتكم ، فهو تعالى يعلم التقيَّ والشقي ، والمؤمن والكافر ، والبرَّ والفاجر ، علم ما تفعلون وإلى ماذا تصيرون ﴿فلا تُزكُّوا أنْفُسكم﴾ أي لا تمدحوها على سبيل الإعجاب ، ولا تشهدوا لها بالكمال والتقى ، فإن النفس خسيسة إذا مُدحت اغترت وتكبَّرت قال أبو حيان : أي لا تنسبوها إلى الطهارة عن المعاصي ، ولا تثنوا عليها ، فقد علم الله منكم الزكيَّ والتقي قبل إخراجكم من صلب آدم ، وقبل إخراجكم من بطون أُمهاتكم[4] ﴿هو أعلم بمن اتقى﴾ أي هو تعالى العالم بمن أخلص العمل ، واتقى ربه في السر والعلن .

* * *

قال الله تعالى : ﴿أفرأيتَ الذي تولَّى * وأعطى قليلاً وأكدى . . إلى . . فاسجدوا لله واعبدوا﴾ من آية (٣٣) إلى آية (٦٢) نهاية السورة .

المناسبة : لما ذكر تعالى في الآيات السابقة سفاهات المشركين وضلالاتهم في عبادتهم للأصنام ، وميَّز بين المؤمنين والمجرمين ، ذكر هنا نوعاً خاصاً من أهل الإجرام ، وختم السورة الكريمة ببيان ما حلَّ بالمكذبين من أنواع العذاب والدمار ، تذكيراً للمشركين بانتقام الله من أعدائه المكذبين لرسوله .

اللغة : ﴿أكدى﴾ قطع العطاء مأخوذ من الكُدية يقال لمن حفر بئراً ثم وجد صخرة تمنعه من إتمام الحفر قد أكدى ، ثم استعمله العرب لمن أعطى ولم يتمم ، ولمن طلب شيئاً فلم يبلغ آخره قال الحطيئة :

فأعطى قليلاً ثم أكدى عطاءه ومن يبذل المعروف في الناس يُحمد[5]

﴿أقنى﴾ أعطاه الكفاية من المال ورضَّاه بما أعطاه قال الجوهري : قني الرجل يقنى مثل غني يغنى أي

(١) قال الخازن : روي عن عمر وابن عباس أنهما قالا : لا كبيرة في الإسلام ومعناه لا كبيرة مع استغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار ، فالكبيرة تمحى الاستغفار والتوبة ، والصغيرة تصير كبيرة بالإصرار عليها . (٢) مختصر ابن كثير ٣/٤٠٣ . (٣) تفسير البيضاوي ٤/١٧٣ .
(٤) تفسير البحر المحيط ٨/ ١٦٥ . (٥) البحر المحيط ٨/ ١٥٥ .

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾

أعطاه الله ما يُقتنى من المال والنشب ، وأقناه الله رضًاه[1] ﴿الشعرى﴾ الكوكب المضيء الذي يطلع بعد الجوزاء في شدة الحر ﴿أزفت﴾ قربت قال كعب بن زهير :

بان الشباب وهذا الشيبُ قد أزفا ... ولا أرى لشباب بائنٍ خلفا[2]

والآزفة القيامة سميت بذلك لقربها ودنوها ﴿سامدون﴾ لاهون لاعبون ، والسمودُ اللهو .

سَبَبُ النّزول : روي أن « الوليد بن المغيرة » جلس عند النبيﷺ وسمع وعظه ، فتأثر قلبه بما سمع وكاد أن يُسلم ، فعيَّره رجلٌ من المشركين وقال : تركت دين آبائك وضلَّلتهم وزعمت أنهم في النار ؟ ! فقال الوليد : إني خشيتُ عذاب الله ، فضمن له الرجل إن هو أعطاه شيئاً من ماله ، ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله عز وجل ، فأعطاه بعض الذي ضمن له ثم بخل ومنعه الباقي فأنزل الله ﴿أفرأيت الذي تولَّى * وأعطى قليلاً وأكدى﴾[3] الآيات .

التفسير : ﴿أفرأيتَ الَّذي تولَّى﴾ أي أخبرني يا محمد عن هذا الفاجر الأثيم الذي أعرض عن الإيمان واتباع الهدى ؟ ﴿وأعطى قليلاً وأكدى﴾ أي وأعطى لصاحبه الذي عيَّره قليلاً من المال المشروط ثم بخلَ بالباقي قال مجاهد : نزلت في الوليد بن المغيرة[4] ﴿أعندهُ علم الغيب فهو يرى﴾ أي أعنده علمٌ بالأمور الغيبية حتى يعلم أن صاحبه يتحمل عنه العذاب ؟ ﴿أم لم يُنبأ بما في صُحُف مُوسى﴾ أي لم يُخبر بما في التوراة المنزلة على موسى ﴿وإبراهيم الذي وفَّى﴾ أي وبما في صحف ابراهيم الذي تمَّم ما أُمر به من طاعة الله وتبليغ رسالته ، على وجه الكمال والتمام قال الحسن : ما أمره الله بشيء إلا وفَّى به كقوله تعالى ﴿وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ فأتمهنَّ﴾ ﴿ألاَّ تزرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخرى﴾ أي أن لا تحمل نفسٌ ذنب غيرها ، ولا يؤ اخذ أحدٌ بجريرة غيره ، والآية ردٌّ على من زعم أنه يتحمل العذاب عن غيره كقوله تعالى ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتَّبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم﴾ ﴿وأنْ ليس للإنسان إلاَّ ما سعى﴾ أي وأنه ليس للإنسان إلا عمله وسعيه قال ابن كثير : أي كما لا يُحمل عليه وزرُ غيره ، كذلك لا يحصل له من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه[5] ﴿وأنَّ سعْيهُ سوف يُرى﴾ أي وأن عمله سيُعرض عليه يوم القيامة ، ويراه في ميزانه قال الخازن : وفي الآية بشارة للمؤ من ، وذلك أن الله تعالى يريه أعماله الصالحة ليفرح بها ، ويحزن الكافر بأعماله الفاسدة فيزداد غماً[6] ﴿ثم يُجزاهُ الجزاء

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ١١٩ . (٢) البحر المحيط ٨/ ١٥٥ . (٣) التفسير الكبير للرازي ٧/ ٧٦٤ .
(٤) انظر سبب النزول السابق . (٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٠٤ . (٦) تفسير الخازن ٤/ ٢٢٣ .

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾

الأوفـى﴾ أي ثم يُجزى بعمله الجزاء الأتم الأكمل ، وهو وعيدٌ للكافر ووعدٌ للمؤمن **﴿وأنَّ إلى ربك المنتهى﴾** أي إليه جل وعلا المرجع والمآب والمصير فيعاقب ويثيب . . ثم شرع تعالى في بيان آثار قدرته فقال **﴿وأنَّـهُ هـو أضحـك وأبكـى﴾** أي هو الذي خلق الفرح والحزن ، والسرور والغم ، فأضحك في الدنيا من أضحك ، وأبكى من أبكى قال مجاهد : أضحك أهل الجنة وأبكى أهل النار[١] **﴿وأنـه أمـات وأحيـا﴾** أي خلق الموت والحياة فهو جل وعلا القادر على الإماتة والإحياء لا غيره ، ولهذا كرر الإسناد « هـو » لبيان أن هذا من خصائص فعل الله **﴿وأنـه خلـق الزوجيـن الذكر والأنثـى﴾** أي أوجد الصنفين الذكر والأنثى من أولاد آدم ومن كل حيوان قال الخازن : والغرض أنه تعالى هو القادر على إيجاد الضدين في محل واحد : الضحك والبكاء ، والإحياء والإماتة ، والذكر والأنثى ، وهذا شيء لا يصل إليه فهم العقلاء ولا يعلمونه ، وإنما هو بقدرة الله تعالى وخلقه لا بفعل الطبيعة ، وفيه تنبيه على كمال قدرته ، لأن النطفة شيء واحد خلق الله منها أعضاء مختلفة ، وطباعاً متباينة ، وخلق منها الذكر والأنثى ، وهذا من عجيب صنعته وكمال قدرته[٢] ، ولهذا قال **﴿مـنْ نُطفـة إذا تُمنـى﴾** أي خلق الذكر والأنثى من نطفة إذا تدفقت من صلب الرجل ، وصُبّت في رحم المرأة **﴿وأنَّ عليـه النَّشـأة الأخـرى﴾** أي وأن عليه جل وعلا إعادة خلق النَّاس للحساب والجزاء ، وإحياؤهم بعد موتهم.قال في البحر : لما كانت هذه النشأة ينكرها الكفار بولغ فيها بقوله تعالى **﴿عليه﴾** كأنه تعالى أوجب ذلك على نفسه[٣] **﴿وأنَّـهُ هـو أغنـى وأقْنـى﴾** أي أغنى من شاء ، وأفقر من شاء[٤] وقال ابن عباس : أعطى فأرضى ، أغنى الإنسان ثم رضاه بما أعطاه **﴿وأنـه هـو ربُّ الشِعـرى﴾** أي هو ربُّ الكوكب المضيء المسمَّى بالشعرى الذي كانوا يعبدونه قال أبو السعود : أي هو رب معبودهم وكانت خزاعة تعبدهاسنَّ لهم ذلك رجلٌ من أشرافهم هو « أبو كبشة »[٥] **﴿وأنَّـه أهلـك عاداً الأولـى﴾** أي أهلك قوم عاد القدماء الذين بُعث لهم نبيُّ الله « هود » عليه السلام ، وكانوا من أشد الناس وأقواهم ، وأعتاهم على الله وأطغاهم ، فأهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية قال البيضاوي : سميت عاداً الأولى أي القدماء لأنهم أُولى الأمم هلاكاً بعد قوم نوح عليه السلام[٦] **﴿وثمـودَ فمـا أبقـى﴾** أي وثمود دمَّرهـم فلـم يُبق منهم أحداً **﴿وقـومَ نـوح مـن قبـلُ﴾** أي وقوم نوح قبل عادٍ وثمود أهلكناهم **﴿إنهـم كانـوا هُـم أظلـم وأطغـى﴾** أي كانوا أظلم من الفريقين ، وأشد تمرداً

---

(١) البحر المحيط٨/١٦٨ . (٢) تفسير الخازن ٤/ ٢٢٤ . (٣) البحر المحيط٨/ ١٦٨ . (٤) هذا قول ابن زيد ثم قرأ ﴿يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ . (٥) تفسير أبي السعود ٥/ ١٦٣ . (٦) تفسير البيضاوي ٤/ ١٧٤ .

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ۝٦٢﴾

وطغياناً ممن سبقهم ، قال في البحر : كانوا في غاية العتو والإيذاء لنوح عليه السلام، يضربونه حتى لا يكاد يتحرك ، ولا يتأثرون بشيء مما يدعوهم إليه قال قتادة : دعاهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، كلما هلك قرن نشأ قرن ، حتى كان الرجل يأخذ بيد ابنه يتمشى به إلى نوح ليحذره منه ويقول له : يا بني إن أبي مشى بي إلى هذا وأنا مثلك يومئذٍ فإياك أن تصدقه ، فيموت الكبير على الكفر ، وينشأ الصغير على بغض نوح[1] ﴿والمؤتفكة أهوى﴾ أي وقرى قوم لوط أهواها فأسقطها على الأرض بعد أن انقلبت بهم فصار عاليها سافلها ، وذلك أن جبريل رفعها إلى السماء ثم أهوى بها ﴿فغشَّاها ما غشَّى﴾ أي فغطَّاها من فنون العذاب ما غطَّى ، وفيه تهويلٌ للعذاب وتعميمٌ لما أصابهم منه قال في البحر : والمؤتفكة هي مدائن قوم لوط ، سميت بذلك لأنها انقلبت بأهلها ، رفعها جبريل عليه السلام ثم أهوى بها إلى الأرض ، ثم أمطرت عليهم حجارة من سجيل منضود فذلك قوله ﴿فغشاها ما غشَّى﴾[2] ﴿فبأي آلاءِ ربِّك تتمارى﴾ أي فبأي نعم الله الدالة على وحدانيته وقدرته تتشكك أيها الإِنسان وتكذب !! ﴿هذا نذيرٌ من النُّذر الأولى﴾ أي هذا هو محمد رسول منذر كسائر الرسل ومن جنس المنذرين الأولين وقد علمتم ما حلَّ بالمكذبين ﴿أزِفتْ الآزِفةُ﴾ أي دنت الساعة واقتربت القيامة قال القرطبي : سميت آزفة لدنوها وقرب قيامها[3] ﴿ليس لها من دونِ الله كاشفةٌ﴾ أي لا يقدر على كشفها وردها إذا غشيت الخلق بأهوالها وشدائدها إلا الله تعالى ﴿أفمن هذا الحديث تعجبون﴾ ؟ استفهامٌ للتوبيخ أي أفمن هذا القرآن تعجبون يا معشر المشركين سخرية واستهزاءً ؟ ﴿وتضحكون ولا تبكون﴾ أي وتضحكون عند سماعه ، ولا تبكون من زواجره وآياته ؟ وقد كان حقكم أن تبكوا الدم بدل الدمع حزناً على ما فرطتم ﴿وأنتم سامدون﴾ أي وأنتم لاهون غافلون ؟ ﴿فاسجدوا للّهِ واعبدوا﴾ أي فاسجدوا لله الذي خلقكم وأفردوه بالعبادة ، ولا تعبدوا اللات والعزى ، ومناة والشعرى ، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذي لا يليق السجود والعبادة إلاَّ له جل وعلا .

البَلاَغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الإبهام للتعظيم والتهويل ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ ومثله ﴿إذْ يغشى السدرة ما يغشى﴾ وكذلك ﴿فغشاها ما غشَّى﴾ .

٢ - الجناس ﴿والنجم إذا هوى . . . وما ينطق عن الهوى﴾ فالأول هوى بمعنى خرَّ وسقط والثاني بمعنى هوى النفس .

(١) البحر المحيط ٨/ ١٧٠ . (٢) نفس المرجع السابق والصفحة . (٣) تفسير القرطبي ١٧/ ١٢٢ .

٣ ـ الطباق بين ﴿أضحك وأبكى﴾ وبين ﴿أمات وأحيا﴾ وبين ﴿ضلَّ واهتدى﴾ وبين ﴿الآخرة والأولى﴾ وبين ﴿تضحكون ولا تبكون﴾ وهي من المحسنات البديعية .

٤ ـ المقابلة ﴿ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾ كما فيه إطناب في تكرار لفظ يجزي وكلاهما من المحسنات البديعية .

٥ ـ الاستفهام التوبيخي مع الإزراء بعقولهم ﴿ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذا قسمةٌ ضيزى﴾ .

٦ ـ الجناس الناقص بين ﴿أغنى . . وأقنى﴾ لتغير بعض الحروف .

٧ ـ جناس الاشتقاق ﴿أزفت الآزفة﴾ .

٩ ـ عطف العام على الخاص ﴿فاسجدوا للهِ واعبدوا﴾ .

١٠ ـ مراعاة الفواصل ورءوس الآيات، مما له أجمل الوقع على السمع مثل ﴿أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى * ألكم الذكر وله الأنثى﴾ ؟ ومثله ﴿أفمن هذا الحديث تعجبون * وتضحكون ولا تبكون * وأنتم سامدون﴾ ؟ ويسمى بالسجع .

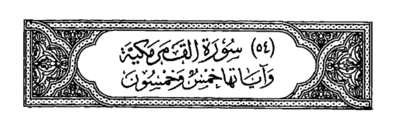
تنبيه : كانت الأصنام التي عبدها المشركون كثيرة تقرب من ثلاثمائة وستين صنماً ومعظمها حول الكعبة وقد حطمهاﷺ عند فتحه لمكة ، وأشهر هذه الأصنام « اللات ، والعُزَّى ، ومناة » وقد أرسلﷺ عام الفتح خالد بن الوليد ليحطم العزَّى فحطمها وهو يقول :

يا عزُّ كفرانك لا سبحانك إني رأيتُ الله قد أهانك

وانتهت بفتح مكة عبادة الأوثان والأصنام ، ودخل الناس في دين الإسلام أفواجاً أفواجاً .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة النجم »

* * *



بين يدي السورة

* سورة القمر من السور المكية ، وقد عالجت أصول العقيدة الإسلامية ، وهي من بدئها إلى نهايتها حملةٌ عنيفةٌ مفزعة على المكذبين بآيات القرآن ، وطابع السورة الخاص ، هو طابع التهديد والوعيد ، والإعذار والإنذار ، مع صور شتّى من مشاهد العذاب والدمار .

* ابتدأت السورة الكريمة بذكر تلك « المعجزة الكونية » معجزة انشقاق القمر ، التي هي إحدى المعجزات العديدة لسيد البشر ﷺ ، وذلك حين طلب المشركون منه معجزة جلية تدل على صدقه ، وخصصوا بالذكر أن يشق لهم القمر ليشهدوا له بالرسالة ، ومع ذلك عاندوا وكابروا ﴿اقتربت الساعةُ وانشقَّ القمر * وإن يروا آيةً يُعرضوا ويقولوا سحرٌ مستمر . .﴾ الآيات .

* ثم انتقلت للحديث عن أهوال القيامة وشدائدها ، بأسلوب مخيف يهز المشاعر هزاً ، ويحرك في النفس الرعب والفزع من هول ذلك اليوم العصيب ﴿فتولَّ عنهم يوم يدع الداع إلى شيءٍ نكر * خُشَّعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جرادٌ منتشر * مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾ .

* وبعد الحديث عن كفار مكة ، يأتي الحديث عن مصارع المكذبين ، وما نالهم في الدنيا من ضروب العذاب والدمار بدءاً بقوم نوح ﴿كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنونٌ وازدجر . .﴾

* ثم تلاه الحديث عن الطغاة المتجبرين من الأمم السالفة ، الذين كذبوا الرسل فأهلكهم الله إهلاكاً فظيعاً ، ودمَّرهم عن بكرة أبيهم ، وقد تحدثت الآيات عن قوم « عاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وقوم فرعون » وغيرهم من الطغاة المتجبرين بشيءٍ من الإسهاب ، مع تصوير أنواع العذاب .

* وبعد عرض هذه المشاهد الأليمة ـ مشاهد العذاب والنكال ـ الذي حلَّ بالمكذبين لرسل الله صلى الله عليهم وسلم توجهت السورة إلى مخاطبة قريش ، وحذرتهم مصرعاً كهذه المصارع بل ما هو أشد وأنكى ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر * بل الساعةُ موعدهم والساعةُ أدهى وأمرّ . .﴾ الآيات .

* وختمت السورة ببيان مآل السعداء المتقين ، بعد ذكر مآل الأشقياء المجرمين ، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب ، بأسلوبه العجيب ﴿إن المتقين في جنات ونَهر * في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر﴾ .

* * *

قال الله تعالى : ﴿اقتربت الساعةُ وانشق القمر . . إلى . . فهل من مُدَّكر﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٣٢) .

اللغــة : ﴿الأجداث﴾ جمع جدث وهو القبر ﴿مهطعين﴾ مسرعين يقال : أهطع في سيره أي أسرع ﴿منهمر﴾ انهمر الماء نزل بقوة غزيراً ﴿دُسُر﴾ الدُّسر : المسامير التي تُشدُّ بها السفينة جمع دِسار ككتاب وكُتب قال في الصحاح : الدِّسار واحد الدُسُرُ وهي خيوط تشد بها ألواح السفينة ويقال هي المسامير[1] ﴿مُدَّكر﴾ متعظ خائف وأصله مذتكر قلبت التاء دالاً ثم أدغمت الذال فيها فصارت مدّكر ﴿صرصراً﴾ الصرصر : الشديدة الصوت مع البرد مأخوذ من صرير الباب وهو تصويته ﴿أعجاز﴾ جمع عجز وهو مؤخر الشيء ﴿منقعر﴾ المنقعر : المنقلع من أصله يقال : قعرت الشجرة قعراً قلعتها من أصلها فانقعرت ﴿سُعُر﴾ جنون من قولهم ناقة مسعورة كأنها من شدة نشاطها مجنونة قال الشاعر :

تخالُ بها سُعْراً إذا السَّفر هزَّها[2]

﴿أشِر﴾ الأشر : البطر ورجلٌ أشر أي بطر أبطرته النعمة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾

التفسير : ﴿اقتربت السَّاعة وانشقَّ القمر﴾ أي دنت القيامة وقد انشق القمر ﴿وإنْ يروا آيةً يُعرضُوا﴾ أي وإن ير كفار قريش علامة ، واضحة ومعجزة ساطعة ، تدل على صدق محمد ﷺ يعرضوا عن الإِيمان ﴿ويقولوا سحرٌ مُستمر﴾ أي ويقولوا هذا سحرٌ دائم ، سحر به محمدٌ أعيننا قال المفسرون : إن كفار مكة قالوا للرسول ﷺ : إن كنت صادقاً فشقَّ لنا القمر فرقتين ، ووعدوه بالإِيمان إن فعل ، وكانت ليلة بدر ، فسأل رسول الله ﷺ ربَّه أن يعطيه ما طلبوا ، فانشقَّ القمر نصف على جبل الصفا ، ونصفٌ على جبل قيقعان المقابل له ، حتى رأوا حراء بينهما ، فقالوا : سحرنا محمد ، ثم قالوا : إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم !! فقال أبو جهل : اصبروا حتى تأتينا أهل البوادي فإن أخبروا بانشقاقه فهو صحيح ، وإلا فقد سحر محمد أعيننا ، فجاءوا فأخبروا بانشقاق القمر فقال أبو

(١) الصحاح مادة دسر . (٢) تفسير القرطبي ١٧/١٣٨ .

﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ۝ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۝ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝﴾

جهل والمشركون : هذا سحرٌ مستمر أي دائم فأنزل الله ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر* وإن يروا آيةً يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾[1] قال الخازن : وانشقاقُ القمر من آيات رسول الله ﷺ الظاهرة ، ومعجزاته الباهرة ، يدل عليه ما أخرجه الشيخان عن أنس « أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أنه يُريهم آية ، فأراهم انشقاق القمر مرتين » وما روي عن ابن مسعود قال « انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين فقال رسول الله ﷺ : اشهدوا »[2] وما روي عن جبير بن مطعم قال « انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين ، فقالت قريش : سحر محمد أعيننا فقال بعضهم : لئن كان سحرنا فما يستطيع أن يسحر الناس كلهم ، فكانوا يتلقون الركبان فيخبرونهم بأنهم قد رأوه فيكذبونهم »[3] فهذه الأحاديث الصحيحة ، قد وردت بهذه المعجزة العظيمة ، مع شهادة القرآن العظيم بذلك ، فإنه أدل دليل وأقوى مثبتٍ له وإمكانه لا يشك فيه مؤمن ، وقيل في معنى الآية : ينشق القمر يوم القيامة ، وهذا قول باطل لا يصح ، وشاذ لا يثبت ، لإجماع المفسرين على خلافه ، ولأن الله ذكره بلفظ الماضي ﴿وانشق القمر﴾ وحمل الماضي على المستقبل بعيد[4] ﴿وكذَّبوا واتَّبعوا أهواءهم﴾ أي وكذبوا النبي ﷺ وما عاينوه من قدرة الله تعالى في انشقاق القمر ، واتبعوا ما زين لهم الشيطان من الباطل ﴿وكلُّ أمرٍ مستقر﴾ أي وكل أمرٍ من الأمور منتهٍ إلى غاية يستقر عليها لا محالة إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر قال مقاتل : لكل حديثٍ منتهى وحقيقة ينتهي إليها وقال قتادة : إن الخير يستقر بأهل الخير ، والشر يستقر بأهل الشر ، وكل أمرٍ مستقر بأهله[5] ﴿ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مُزدجر﴾ أي ولقد جاء هؤلاء الكفار من أخبار الأمم الماضية المكذبين للرسل ، ما فيه واعظ لهم عن التمادي في الكفر والضلال ﴿حكمةٌ بالغةٌ﴾ أي هذا القرآن حكمة بالغة ، بلغت النهاية في الهداية والبيان ﴿فما تُغْني النُّذر﴾ أي أيَّ شيءٍ تُغني النُّذُر عمن كتب الله عليه الشقاوة ، وختم على سمعه وقلبه ؟! قال المفسرون : المعنى لقد جاءهم القرآن وهو حكمة تامة قد بلغت الغاية ، فماذا تنفع الإنذارات والمواعيد لقومٍ أصموا آذانهم عن سماع كلام الله ؟ كقوله تعالى ﴿وما تُغني الآيات والنُّذر عن قومٍ لا يؤمنون﴾ ﴿فتولَّ عنهم﴾ أي فأعرض يا محمد عن هؤلاء المجرمين وانتظرهم ﴿يومَ يدعُ الدَّاع إلى شيءٍ نُكر﴾ أي يوم يدعو إسرافيل إلى شيءٍ منكر فظيع ، تنكره النفوس لشدته وهوله ، وهو يوم القيامة وما فيه من البلاء والأهوال ﴿خُشَّعاً أبصارُهُم﴾ أي ذليلةً أبصارهم لا يستطيعون رفعها من شدة الهول ﴿يخرجون من الأجداث﴾ أي يخرجون من

(١) هذا قول جمهور المفسرين وهو مروي عن ابن عباس وأنس وابن عمر ، وذهب بعضهم إلى أن القمر سينشق يوم القيامة قال ابن الجوزي : وهو قول شاذ لا يقاوم الإجماع .

(٢) رواه البخاري ومسلم . (٣) أخرجه الترمذي وغيره . (٤) تفسير الخازن ٤/ ٢٢٦ . (٥) تفسير ابن الجوزي ٨/ ٨٩ .

﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾

القبور ﴿كأنَّهم جرادٌ مُنتشر﴾ أي كأنهم في انتشارهم وسرعة إجابتهم للداعي جرادٌ منتشر في الآفاق ، لا يدرون أين يذهبون من الخوف والحيْرة قال ابن الجوزي : وإنما شبههم بالجراد المنتشر ، لأن الجراد لا جهة له يقصدها ، فهم يخرجون من القبور فزعين ليس لأحدٍ منهم جهة يقصدها ، والداعي هو إسرافيل(١) ﴿مُهطعين إلى الدَّاع﴾ أي مسرعين مادّي أعناقهم إلى الداعي لا يتلكئون ولا يتأخرون ﴿يقول الكافرون هذا يومٌ عسرٌ﴾ أي يقول الكافرون هذا يوم صعبٌ شديد قال الخازن : وفيه إشارة إلى أنَّ ذلك اليوم يومٌ شديد على الكافرين لا على المؤمنين(٢) كقوله تعالى ﴿على الكافرين غيرُ يسير﴾ . . ثم ذكر تعالى وقائع الأمم المكذبين وما حلَّ بهم من العذاب والنكال تسلية لرسول الله ﷺ وتحذيراً لكفار مكة فقال ﴿كذبت قبلهم قومُ نوح﴾ أي كذب قبل قومك يا محمد قومُ نوح ﴿فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازْدُجر﴾ أي فكذبوا عبدنا نوحاً وقالوا إنه مجنون ، وانتهروه وزجروه عن دعوى النبوة بالسب والتخويف والوعيد بقولهم ﴿لئن لم تنته يا نوحُ لتكوننَّ من المرجومين﴾ قال في البحر : لم يقنعوا بتكذيبه حتى نسبوه إلى الجنون أي أنه يقول ما لا يقبله عاقل وذلك مبالغة في تكذيبهم ، وإنما قال ﴿عبدنا﴾ تشريفاً له وخصوصية بالعبودية(٣) ﴿فدعا ربَّهُ أنـي مغلوبٌ فانتصر﴾ أي فدعا نوح ربه وقال يا ربِّ إني ضعيف عن مقاومة هؤلاء المجرمين ، فانتقم لي منهم وانتصر لدينك قال أبو حيان : وإنما دعا عليهم بعدما يئس منهم وتفاقم أمرهم ، وكان الواحد من قومه يخنقه إلى أن يخر مغشياً عليه وهو يقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون(٤) ﴿ففتحنا أبواب السَّماءِ بماءٍ مُنهمر﴾ أي فأرسلنا المطر من السماء منصباً بقوة وغزارة قال أبو السعود : وهو تمثيلٌ لكثرة الامطار وشدة انصبابها(٥) ﴿وفجَّرنا الأرض عُيوناً﴾ أي جعلنا الأرض كلها عيوناً متفجرة بالماء ﴿فالْتقى الماءُ على أمرٍ قد قُدر﴾ أي فالتقى ماء السماء وماء الأرض على حالٍ قد قدَّرها الله في الأزل وقضاها بإهلاك المكذبين غرقاً قال قتادة : قضى عليهم في أم الكتاب إذا كفروا أن يُغرقوا ﴿وحملناهُ على ذات ألواحٍ ودُسُر﴾ أي وحملنا نوحاً على السفينة ذات الألواح الخشبية العريضة المشدودة بالمسامير قال في البحر : وذات الألواح والدُّسر هي السفينة التي أنشأها نوح عليه السلام ، ويفهم من هذين الوصفين أنها « السفينة » فهي صفة تقوم مقام الموصوف وتنوب عنه ونحوه : قميصي مسرودة من حديد أي درع ، وهذا من فصيح الكلام وبديعه ، ولو جمعت بين الصفة

(١) تفسير ابن الجوزي ٨/ ٩١ . (٢) تفسير الخازن ٤/ ٢٢٨ .
(٣) تفسير البحر المحيط ٨/ ١٧٦ .
(٤) البحر المحيط ٨/ ١٧٦ . (٥) تفسير أبي السعود ٧/ ٧٨٦ .

تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾

والموصوف لم يكن بالفصيح ، والدُّسُر : المسامير[١] ﴿تجري بأعيننا﴾ أي تسير على وجه الماء بحفظنا وكلاءتنا وتحت رعايتنا ﴿جزاءً لمن كانَ كُفِرَ﴾ أي أغرقنا قوم نوح انتصاراً لعبدنا نوح لأنه كان قد كُذِّبَ وجُحد فضلُه قال الألوسي : أي فعلنا ذلك جزاءً لنوح لأنه كان نعمةً أنعمها الله على قومه فكفروها ، وكذلك كلُ نبيٍ نعمةٌ من الله تعالى على أمته[٢] ﴿ولقد تركناها آية﴾ أي تركنا تلك الحادثة « الطوفان » عبرة ﴿فهل من مدكر﴾ أي فهل من معتبر ومتعظ ؟ ﴿فكيف كان عذابي ونُذر﴾ استفهام تهويل وتعجيب أي فكيف كان عذابي وإنذاري لمن كذب رسلي ، ولم يتعظ بآياتي ؟ ﴿ولقد يسَّرنا القرآن للذكر﴾ أي والله لقد سهلنا القرآن للحفظ والتدبر والاتعاظ ، لما اشتمل عليه من أنواع المواعظ والعبر ﴿فهل من مُدَّكر﴾ أي فهل من متعظٍ بمواعظه ، معتبرٍ بقصصه وزواجره ؟ قال الخازن : وفيه الحث على تعليم القرآن والاشتغال به ، لأنه قد يسره الله وسهله على من يشاء من عباده ، بحيث يسهل حفظه للصغير والكبير، والعربي والعجمي قال سعيد بن جبير : يسرناه للحفظ والقراءة ، وليس شيء من كُتب الله تعالى يُقرأ كلُّه ظاهراً إلا القرآن[٣] ، وبالجملة فقد جعل الله القرآن مهيئاً ومسهلاً لمن أراد حفظه وفهمه أو الاتعاظ به ، فهو رأس سعادة الدنيا والآخرة ﴿كذَّبت عادٌ فكيف كان عذابي ونُذُر﴾ أي كذبت عادٌ رسولهم هوداً فكيف كان إنذاري لهم بالعذاب ؟ ثم شرع في بيان ما حلَّ بهم من العذاب الفظيع المدمر فقال ﴿إنَّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً﴾ أي أرسلنا عليهم ريحاً عاصفة باردة شديدة الهبوب والصوت قال ابن عباس : الصرصر : الشديدة البرد وقال السدي : الشديدة الصوت[٤] ﴿في يوم نَحْسٍ مستمر﴾ أي في يومٍ مشئوم دائم الشؤم ، استمر عليهم بشؤمه فلم يبق منهم أحدٌ إلا هلك فيه قال ابن كثير : استمر عليهم نحسه ودماره ، لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي ﴿تنزِعُ الناسَ﴾ أي تقلع الريح القوم ثم ترمي بهم على رءوسهم فتدقُّ رقابهم وتتركهم ﴿كأنَّهم أعجازُ نخْلٍ مُنقعر﴾ أي كأنهم أصول نخلٍ قد انقلعت من مغارسها وسقطت على الأرض ، شبهوا بالنخل لطولهم وضخامة أجسامهم قال الخازن : كانت الريح تقلعهم ثم ترمي بهم على رءوسهم فتدق رقابهم ، وتفصل رءوسهم من أجسامهم فتبقى أجسامهم بلا رءوس كعجز النخلة الملقاة على الأرض[٥] ﴿فكيف كان عذابي ونُذُر﴾ تهويلٌ لما حلَّ بهم من العذاب وتعجيبٌ من أمرهم أي كيف كان عذابي وإنذاري

(١) البحر المحيط ٨/ ١٧٧ . (٢) روح المعاني ٢٧/ ٨٣ . (٣) تفسير الخازن ٤/ ٢٢٨ .

(٤) قال ابن كثير بعد أن نقل الأقوال : والحقُّ أنها متصفة بجميع ذلك ، فقد كانت ريحاً شديدة قوية ، وكانت باردة شديدة البرد ، وكانت ذات صوت مزعج ا هـ . وهذا القول هو الذي اخترناه . (٥) تفسير الخازن ٤/ ٢٢٩ .

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٣٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٣٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٣٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٣٧﴾﴾

لهم ؟ ألم يكن هائلاً فظيعاً ؟ ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ ؟ كرره للتنبيه على فضل الله على المؤمنين بتيسير حفظ القرآن أي ولقد سهلنا القرآن للحفظ والفهم ، فهل من متعظٍ ومعتبر بزواجر القرآن !؟ ثم أخبر تعالى عن قوم ثمود المكذبين لرسولهم صالح عليه السلام فقال ﴿كذَّبت ثمودُ بالنُذر﴾ أي كذبت ثمود بالإنذارات والمواعظ التي أنذرهم بها نبيهم صالح ﴿فقالوا أبشراً منَّا واحداً نتَّبعه﴾ أي أنتَّبع إنساناً مثلنا من آحاد الناس ، ليس من الأشراف ولا العظماء ، ونحن جماعة كثيرون ؟ قال في البحر : قالوا ذلك حسداً منهم واستبعاداً أن يكون نوع البشر يفضل بعضُه بعضاً هذا الفضل ، فقالوا : أنكون جمعاً ونتبع واحداً منا ؟ ولم يعلموا أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، ويفيض نور الهدى على من رضيه[1] ﴿إنَّا إذاً لَفي ضلالٍ وسُعُر﴾ أي إنا إذا اتبعناه لفي خطأٍ وذهابٍ عن الحقِّ واضح ، وجنون دائم قال ابن عباس : سُعُر أي جنون من قولهم ناقة مسعورة كأنها من شدة نشاطها مجنونة[2] ﴿أأُلقي الذكر عليه من بيننا﴾ استفهام إنكاري أي هل خصَّ بالوحي والرسالة وحده دوننا ، وفينا من هو أكثر منه مالاً وأحسن حالاً ؟ قال الإمام الفخر : وفي الآية إشارة إلى ما كانوا ينكرونه بطريق المبالغة ، وذلك لأن الإلقاء إنزالٌ بسرعة ، فكأنهم قالوا : الملك جسيم والسماء بعيدة فكيف ينزل عليه الوحي في لحظة ؟ وقولهم « عليه » إنكارٌ آخر كأنهم قالوا : ما أُلقي عليه ذكرٌ أصلاً ، وعلى فرض نزوله فلا يكون عليه من بيننا وفينا من هو فوقه في الشرف والذكاء ؟ وقولهم ﴿أأُلقي﴾ بدلاً من قولهم ﴿أألقى اللهُ﴾ إشارة إلى أن الإلقاء من السماء غير ممكن فضلاً عن أن يكون من الله تعالى[3] ﴿بل هو كذَّاب أشر﴾ أي بل هو كاذب في دعوى النبوة ، متجاوز في حد الكذب ، متكبرٌ بطِرٌ يريد العلو علينا ، وإنما وصفوه بأنه ﴿أشر﴾ مبالغة منهم في رفض دعواه كأنهم قالوا إنه كذب لا لضرورةٍ وحاجةٍ إلى الخلاص كما يكذب الضعيف ، وإنما تكبّر وبطر وطلب الرياسة عليكم وأراد أن تتبعوه فكذب على الله ، فلا يلتفت إلى كلامه لأنه جمع بين رذيلتين : الكذب والتكبر ، وكلٌ منهما مانع من اتباعه ، قال تعالى تهديداً لهم ورداً لبهتانهم ﴿سيعلمون غداً من الكذَّاب الأشر﴾ أي سيعلمون في الآخرة من هو الكذَّاب الأشر ، هل هو صالح عليه السلام أم قومه المكذبون المجرمون ؟ قال الألوسي : المراد سيعلمون أنهم هم الكذابون الأشرون ، لكنْ أورد ذلك مورد الإبهام إيماءً إلى أنه مما لا يكاد يخفى[4] ﴿إنَّا مُرسلوا النَّاقة فِتنةً لهم﴾ أي مخرجوا الناقة من الصخرة الصماء محنة لهم واختباراً كما شاءوا وطلبوا قال ابن كثير : أخرج الله لهم ناقة عظيمة عشراء ، من صخرة صماء طبق ما سألوا ، لتكون حجة الله عليهم

(١) تفسير البحر المحيط ٨/ ١٨٠ . (٢) تفسير القرطبي ١٧/ ١٣٨ . (٣) التفسير الكبير للرازي ٧/ ٧٩٩ . (٤) روح المعاني ٢٧/ ٨٨ .

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾

في تصديق صالح عليه السلام فيما جاءهم به[1] ﴿فارتقبهم واصْطبر﴾ أي فانتظرهم وتبصَّرْ ما يصنعون وما يُصنع بهم ، واصبر على أذاهم فإن الله ناصرك عليهم ﴿ونبئْهم أنَّ الماءَ قِسمةٌ بينهم﴾ أي وأعلِمْهم أنَّ الماء الذي يمرُّ بواديهم مقسومٌ بين ثمود وبين الناقة كقوله تعالى ﴿لها شربٌ ولكم شربُ يوم معلوم﴾ قال ابن عباس : إذا كان يوم شربهم لا تشرب الناقةُ شيئاً من الماء وتسقيهم لبناً وكانوا في نعيم ، وإذا كان يوم الناقة شربت الماء كله فلم تُبق لهم شيئاً[2] ، وإنما قال تعالى ﴿بينهم﴾ تغليباً للعقلاء ﴿كلُّ شِربٍ مُحتضر﴾ أي كل نصيب وحصة من الماء يحضرها من كانت نوبته ، فإذا كان يوم الناقة حضرت شربها ، وإذا كان يومهم حضروا شربهم ﴿فنادوا صاحبهم فتعاطى فَعَقر﴾ أي فنادت قبيلة ثمود أشقى القوم واسمه « قدار بن سالف » لقتل الناقة فتناول الناقة بسيفه فقتلها غير مكترث بالأمر العظيم ﴿فكيف كان عذابي ونُذر﴾ أي فكيف كان عقابي وإنذاري لهم ؟ ألم يكن فظيعاً شديداً ؟! ﴿إنّا أرسلْنا عليهم صيْحةً واحدة﴾ أي أهلكناهم بصيحة واحدة صاح بها جبريل عليه السلام فلم تبق منهم عين تطْرف ﴿فكانوا كهشيم المُحتظِر﴾ أي فصاروا هشيماً متفتتاً كيابس الشجر إذا بلي وتحطَّم وداسته الأقدام قال الإمام الجلال : المحتظر هو الذي يجعل لغنمه حظيرةً من يابس الشجر والشوك يحفظهن فيها من الذئاب والسباع ، وما سقط من ذلك فداسته فهو الهشيم ﴿ولقد يسَّرنا القرآن للذكر فهل من مُدكر﴾ أي يسرناه للحفظ والاتعاظ فهل من معتبر ؟

* * *

قال الله تعالى : ﴿كذَّبت قوم لوطٍ بالنذر . . إلى . . عند مليكٍ مقتدر﴾
من آية (٣٣) إلى آية (٥٥) نهاية السورة .

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى المكذبين من قوم « عاد وثمود » ذكر هنا قوم لوط وقوم فرعون وما حل بهم من العذاب والدمار ، تذكيراً لكفار مكة بانتقام الله من أعدائه وأعداء رسله ، وختم السورة الكريمة ببيان سنة الله في عقاب الكفرة المجرمين .

اللغَة : ﴿حاصباً﴾ الحاصب : الحجارة وقيل : هي الريح الشديد التي تثير الحصباء وهي الحصى ﴿بطشنا﴾ عقابنا الشديد ﴿الزُّبر﴾ الكتب السماوية جمع زبور وهو الكتاب الإلهي ﴿أدهى﴾ أفظع من الداهية وهي الأمر المنكر العظيم ﴿سُعُر﴾ خسرانٍ وجنون ﴿سقر﴾ اسم من أسماء جهنم أعاذنا الله منها .

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤١١ . (٢) تفسير القرطبي ١٧/ ١٤٠ .

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾

سبب النزول : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر فنزلت ﴿يوم يُسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مسَّ سقر * إنَّا كلَّ شيءٍ خلقناه بقدر﴾[1] .

التفسير : ﴿كذَّبت قومُ لوطٍ بالنُّذر﴾ أي كذبوا بالإِنذارات التي أنذرهم بها نبيهم لوط عليه السلام ﴿إنَّا أرسلنا عليهم حاصباً﴾ أي أرسلنا عليهم حجارة قذفوا بها من السماء قال ابن كثير : أمر تعالى جبريل فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم وأرسلها وأُتبعت بحجارةٍ من سجيلٍ منضود ، والحاصب هي الحجارة[2] ﴿إلاَّ آل لوطٍ﴾ أي غير لوطٍ وأتباعه المؤمنين ﴿نجَّيناهم بسحَر﴾ أي نجيناهم من الهلاك قُبيل الصبح وقت السَّحر ﴿نعمةً من عندنا﴾ أي إنعاماً منَّا عليهم نجيناهم من العذاب ﴿كذلك نجزي من شكر﴾ أي مثل ذلك الجزاء الكريم ، نجزي من شكر نعمتنا بالإيمان والطاعة ﴿ولقد أنذرهم بطشتنا﴾ أي ولقد خوفهم لوط عقوبتنا الشديدة ، وانتقامنا منهم بالعذاب ﴿فتماروا بالنُّذُر﴾ أي فتشككوا وكذبوا بالإِنذار والوعيد ﴿ولقد راودوه عن ضيفه﴾ أي طلبوا منه أن يسلِّم لهم أضيافه وهم الملائكة ليفجروا بهم بطريق اللواطة ﴿فطمسنا أعينهم﴾ أي أعمينا أعينهم وأزلنا أثرها حتى فقدوا أبصارهم قال المفسرون : لما جاءت الملائكة إلى لوط في صورة شبابٍ مردٍ حسان ، أضافهم لوط عليه السلام ، فجاء قومه يُهرعون إليه لقصد الفاحشة بهم ، فأغلق لوط دونهم الباب ، فجعلوا يحاولون كسر الباب ، فخرج عليهم جبريل فضرب أعينهم بطرف جناحه فانطمست أعينهم وعموا[3] ﴿فذوقوا عذابي ونُذُر﴾ أي فذوقوا عذابي وإنذاري الذي أنذركم به لوط ﴿ولقد صبَّحهم بكرةً عذابٌ مستقر﴾ أي جاءهم وقت الصبح عذابٌ دائم متصل بعذاب الآخرة قال الصاوي : وذلك أن جبريل قلع بلادهم فرفعها ثم قلبها بهم وأمطر عليهم حجارة من سجيل ، واتصل عذاب الدنيا بعذاب الآخرة فلا يزول عنهم حتى يصلوا إلى النار[4] ﴿فذوقوا عذابي ونُذر﴾ أي فذوقوا أيها المجرمون عذابي الأليم ، وإنذاري لكم على لسان رسولي ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدَّكر﴾ أي ولقد يسرنا القرآن للحفظ والتدبر فهل من متعظٍ ومعتبر ؟ قال المفسرون : حكمة تكرار ذلك في كل قصة ، التنبيهُ على الاتعاظ والتدبر في أنباء الغابرين ، وللإِشارة إلى أن تكذيب كل رسولٍ

(١) أخرجه مسلم والترمذي . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤١٢ .
(٣) انظر تفسير الخازن ٤/ ٢٣٠ وتفسير الرازي ٧/٨٠٨ . (٤) حاشية الصاوي ٤/ ١٥٠ .

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾

مقتضٍ لنزول العذاب كما كرر قوله ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ تقريراً للنعم المختلفة المعدودة ، فكلما ذكر نعمةً وبَّخ على التكذيب بها[1] ﴿ولقد جاء آل فرعون النُّذُر﴾ أي جاء فرعون وقومه الإنذارات المتكررة فلم يعتبروا قال أبو السعود : صُدِّرت قصتهم بالقسم المؤكد لإبراز كمال الاعتناء بشأنها ، لغاية عظم ما فيها من الآيات وكثرتها ، وهول ما لاقوه من العذاب ، وفرعون رأس الطغيان[2] ﴿كذَّبوا بآياتنا كلِّها﴾ أي كذَّبوا بالمعجزات التسع التي أعطيها موسى[3] ﴿فأخذْناهم أخذ عزيزٍ مُقْتدر﴾ أي فانتقمنا منهم بإغراقهم في البحر ، وأخذناهم بالعذاب أخذ إلهٍ غالب في انتقامه ، قادرٍ على إهلاكهم لا يعجزه شيء . . ثم خوَّف تعالى كفار مكة فقال ﴿أكفارُكم خيرٌ من أولئكم﴾ ؟ الاستفهام إنكاري للتقريع والتوبيخ أي أكفاركم يا معشر العرب خيرٌ من أولئكم الكفار الذين أحللت بهم نقمتي مثل قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وقوم فرعون ، حتَّى لا أعذبهم ؟ قال القرطبي : استفهام إنكار ومعناه النفي أي ليس كفاركم خيراً من كفار من تقدم من الأمم الذين أهلكوا بكفرهم[4] ﴿أم لكم براءةٌ في الزُّبر﴾ أي أم لكم يا كفار قريش براءة من العذاب في الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء ؟ ﴿أمْ يقولون نحنُ جميعٌ مُنتصر﴾ أي بل أيقولون نحن جمعٌ كثير ، واثقون بكثرتنا وقوتنا ، منتصرون على محمد ؟ قال تعالى رداً عليهم ﴿سيُهزم الجمعُ ويولُّون الدُّبر﴾ أي سيهزم جمع المشركين ويولون الأدبار منهزمين قال ابن الجوزي : وهذا مما أخبر الله به نبيه من علم الغيب ، فكانت الهزيمةُ يوم بدر[5] ﴿بل السَّاعة موعدهم﴾ أي ليس هذا تمام عقابهم بل القيامة موعد عذابهم ﴿والساعة أدهى وأمرُّ﴾ أي أعظم داهيةً وأشدُّ مرارةً من القتل والأسر ﴿إنَّ المجرمين في ضلالٍ وسُعُر﴾ أي إن المجرمين في حيرةٍ وتخبطٍ في الدنيا ، وفي نيرانٍ مسعَّرة في الآخرة قال ابن عباس : في خسرانٍ وجنون[6] ﴿يومَ يُسحبون في النار على وجوههم﴾ أي يوم يُجرُّون في النار على وجوههم عقاباً وإذلالاً لهم ﴿ذوقوا مسَّ سقر﴾ أي يقال لهم : ذوقوا أيها المكذبون عذاب جهنم قال أبو السعود : وسقر علمٌ لجهنم ولذلك لم يُصرف[7] ﴿إنّا كلَّ شيءٍ خلقناه بقدر﴾ أي إنا خلقنا كل شيءٍ مقدَّراً مكتوباً في اللوح المحفوظ من الأزل ﴿وما أمرنا إلاَّ واحدةٌ كلمح بالبصر﴾ أي وما شأننا في الخلق والإيجاد إلا مرة واحدة كلمح البصر في السرعة

(١) انظر التفسير الكبير للرازي ٧/ ٨١٠ . (٢) تفسير أبي السعود ٥/ ١٧٨ . (٣) قال القرطبي: المراد المعجزات الدالة على توحيد الله ونبوة موسى وهي: «العصا، واليد، والسنون، والطمس، والطوفان، والجراد، والقُمل، والضفادع، والدم» .
(٤) تفسير القرطبي ١٧/ ١٤٥ . (٥) تفسير ابن الجوزي ٨/ ١٠٠ . (٦) روح المعاني ٢٧/ ٩٣ . (٧) تفسير أبي السعود ٥/ ١٧٩ .

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾

نقول للشيء : كن فيكون قال ابن كثير : أي إنما نأمر بالشيء مرة واحدة لا نحتاج إلى تأكيد بثانية ، فيكون ذلك موجوداً كلمح البصر لا يتأخر طرفة عين[1] ﴿ولقد أهلكنا أشياعكم﴾ أي ووالله لقد أهلكنا أشباهكم ونظراءكم في الكفر والضلال من الأمم السالفة ﴿فهل من مدكر﴾ أي فهل من يتذكر ويتعظ؟ ﴿وكلُّ شيءٍ فعلوه في الزُّبر﴾ أي وجميع ما فعلته الامم المكذبة من خير وشر مكتوب عليهم ، مسجل في كتب الحفظة التي بأيدي الملائكة قال ابن زيد : ﴿في الزُّبر﴾ أي في دواوين الحفظة ﴿وكلُّ صغيرٍ وكبيرٍ مُسْتطر﴾ أي وكل صغيرٍ وكبيرٍ من الأعمال مسطورٌ في اللوح المحفوظ ، مثبتٌ فيه ﴿إنَّ المتقين في جناتٍ ونهر﴾ أي في جنات وأنهار قال القرطبي : يعني أنهار الماء ، والخمر ، والعسل ، واللبن ﴿في مقعد صدق﴾ أي في مكانٍ مرضيٍ ، ومقام حسن ﴿عند مليكٍ مُقْتدر﴾ أي عند ربٍ عظيم جليل ، قادرٍ في ملكه وسلطانه ، لا يعجزه شيء ،وهو الله رب العالمين .

البَـلاَغَـة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿ففتحنا أبواب السماء﴾ شبه تدفق المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت بها أبواب السماء ، وانشق بها أديم الخضراء بطريق الاستعارة التمثيلية .

٢ ـ جناس الاشتقاق ﴿يدعو الداع﴾ .

٣ ـ الكناية ﴿وحملناه على ذات ألواحٍ ودسر﴾ كناية عن السفينة التي تحوي الأخشاب والمسامير .

٤ ـ التشبيه المرسل والمجمل ﴿كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية﴾ ومثله ﴿فكانوا كهشيم المحتظر﴾ .

٥ ـ صيغة المبالغة ﴿بل هو كذَّاب أشر﴾ أي كثير الكذب عظيم البطر لأن فعَّال وفعل للمبالغة .

٦ ـ الإطناب بتكرار اللفظ ﴿بل الساعة موعدهم والساعة أدهى﴾ لزيادة التخويف والتهويل .

٧ ـ المقابلة بين المجرمين والمتقين ﴿إن المجرمين في ضلالٍ وسُعُر﴾ و ﴿إن المتقين في جناتٍ ونهر﴾ .

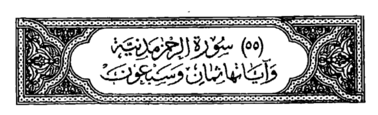
٨ ـ الطباق بين ﴿صغير وكبير﴾ .

٩ ـ السجع المرصَّع غير المتكلف الذي يزيد في جمال اللفظ وموسيقاه إقرأ مثلاً قوله تعالى ﴿ذوقوا مسَّ سقر * إنا كل شيء خلقناه بقدر * وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ الخ .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة القمر »

* * *

(١) المختصر ٣/٤١٤ .



بين يدي السورة

* سورة الرحمن من السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية ، وهي كالعروس بين سائر السور الكريمة ، ولهذا ورد في الحديث الشريف (لكل شيءٍ عروس ، وعروسُ القرآن سورة الرحمن) .

* ابتدأت السورة بتعديد آلاء الله الباهرة ، ونعمه الكثيرة الظاهرة على العباد ، التي لا يحصيها عدٌ ، وفي مقدمتها نعمة « تعليم القرآن » بوصفه المنَّة الكبرى على الإنسان ، تسبق في الذكر خلق الإنسان ذاته وتعليمه البيان ﴿الرحمن ۞ علَّم القرآن ۞ خلق الإنسان ۞ علَّمه البيان﴾ .

* ثم فتحت السورة صحائف الوجود ، الناطقة بآلاء الله الجليلة ، وآثاره العظيمة التي لا تحصى ، الشمس والقمر ، والنجم والشجر ، والسماء المرفوعة بلا عمد ، وما فيها من عجائب القدرة وغرائب الصنعة ، والأرضُ التي بثَّ فيها من أنواع الفواكه ، والزروع ، والثمار ، رزقاً للبشر ﴿الشمسُ والقمر بحسبان ۞ والنجم والشجر يسجدان . .﴾ الآيات .

* وتحدثت السورة عن دلائل القدرة الباهرة في تسيير الأفلاك ، وتسخير السفن الكبيرة تمخر عباب البحار وكأنها الجبال الشاهقة عظمةً وضخامة ، وهي تجري فوق سطح الماء ﴿وله الجوار المنشآتُ في البحر كالأعلام . .﴾ الآيات .

* ثم بعد ذلك الاستعراض السريع لصفحة الكون المنظور ، تُطوى صفحات الوجود ، وتتلاشى الخلائق بأسرها ، فيلفها شبح الموت الرهيب ، ويطويها الفناء ، ولا يبقى إلا الحي القيوم متفرداً بالبقاء ﴿كلُّ من عليها فان ۞ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ .

* وتناولت السورة أهوال القيامة ، فتحدثت عن حال الأشقياء المجرمين ، وما يلاقونه من الفزع والشدائد في ذلك اليوم العصيب ﴿يُعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام . .﴾ الآيات .

* وبعد الحديث عن مشهد العذاب للمجرمين ، تناولت السورة مشهد النعيم للمتقين في شيء من

الإسهاب والتفصيل ، حيث يكونون في الجنان مع الحور والولدان ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان . .﴾ الآيات .

❊ وختمت السورة بتمجيد الله جل وعلا والثناء عليه ، على ما أنعم على عباده من فنون النعم والإكرام ، وهو أنسب ختام لسورة الرحمن ﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾ وهكذا يتناسق البدء مع الختام في أروع صور البيان !!

* * *

قال الله تعالى : ﴿الرحمن ❊ علَّم القرآن . . إلى . . فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾
من آية (١) إلى نهاية آية (٤٥) .

اللغــة : ﴿بحسبان﴾ الحُسبان بضم الحاء مصدر مثل الغُفران والكُفران ومعناه الحساب ﴿الأنام﴾ الخلق وكلُّ ما دبَّ على وجه الأرض ﴿العصف﴾ ورق الزرع الأخضر إذا يبس ﴿الريحان﴾ كل نباتٍ طيب الريح ، سمي ريحاناً لرائحته الطيبة ﴿مارج﴾ المارج : اللهب الذي يعلو النار قال الليث : هو الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد[١] ﴿الجوار﴾ جمع جارية وهي السفينة سميت جارية لأنها تمشي على سطح الماء ﴿الأعلام﴾ الجبال جمع علم وهو الجبل الطويل قال الشاعر : « إذا قطعن علماً بدا علمٌ » ﴿تنفذوا﴾ النفوذ : الخروج من الشيء بسرعة ﴿شُواظٌ﴾ الشُواظ : اللهب الذي لا دخان له ﴿الدهان﴾ الجلد الأحمر ﴿آنٍ﴾ نهاية في الحرارة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾

التفسير : ﴿الرحمن ❊ علَّم القرآن﴾ أي الله الرحمنُ علَّم القرآن ، ويسَّره للحفظ والفهم قال مقاتل : لما نزل قوله تعالى ﴿اسجدوا للرحمن﴾ قال كفار مكة : وما الرحمن ؟ فأنكروه وقالوا لا نعرف الرحمن فقال تعالى ﴿الرحمنُ﴾ الذي أنكروه هو الذي ﴿علَّم القرآن﴾[٢] وقال الخازن : إن الله عز وجل عدَّد نعمه على عباده ، فقدَّم أعظمها نعمة ، وأعلاها رتبة ، وهو القرآن العزيز لأنه أعظم وحي الله إلى أنبيائه ، وأشرفه منزلة عند أوليائه وأصفيائه ، وأكثره ذكراً ، وأحسنه في أبواب الدين أثراً ، وهو سنام الكتب السماوية المنزَّلة على أفضل البرية[٣] ﴿خلقَ الإنسان﴾ أي خلق الإنسان السميع البصير الناطق ، والمرادُ بالإنسان الجنسُ ﴿علَّمهُ البيان﴾ أي ألهمه النطق الذي يستطيع به أن يُبين عن مقاصده ورغباته ، ويتميَّز به عن سائر الحيوان قال البيضاوي : والمقصودُ تعداد ما أنعم الله به على نوع الإنسان ، حثاً على

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ١٦١ . (٢) زاد المسير ٨/ ١٠٥ . (٣) تفسير الخازن ٤/ ٢٤٦ .

﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾

شكره ، وتنبيهاً على تقصيرهم فيه ، وإنما قدَّم تعليم القرآن على خلق الإنسان ، لأنه أصل النعم الدينية فقدَّم الأهم[1] ﴿الشَّمسُ والقمرُ بحُسْبان﴾ أي الشمس والقمر يجريان بحساب معلوم في بروجهما ، ويتنقلان في منازلهما لمصالح العباد قال ابن كثير : أي يجريان متعاقبين بحساب مقنَّن لا يختلف ولا يضطرب[2] ﴿والنجمُ والشجرُ يسجدان﴾ أي والنجمُ والشجر ينقادان للرحمن فيما يريده منهما ، هذا بالتنقل بالبروج ، وذاك بإخراج الثمار[3] ﴿والسَّماء رفعها ووضعَ الميزان﴾ أي والسماء خلقها عالية محكمة البناء رفيعة القدر والشأن ، وأمر بالميزان عند الأخذ والإعطاء لينال الإنسان حقه وافياً ﴿ألاَّ تطْغوا في الميزان﴾ أي لئلا تبخسوا في الميزان ﴿وأقيموا الوزن بالقسط﴾ أي اجعلوا الوزن مستقيماً بالعدل والإنصاف ﴿ولا تُخسروا الميزان﴾ أي لا تطففوا الوزن ولا تُنقصوه كقوله تعالى ﴿ويلٌ للمطففين﴾ ﴿والأرض وضعها للأنام﴾ أي والأرض بسطها لأجل الخلق ، ليستقروا عليها ، وينتفعوا بما خلق الله على ظهرها قال ابن كثير : أي أرساها بالجبال الشامخات لتستقر بما على وجهها من الأنام وهم الخلائق ، المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم في سائر أرجائها[4] ﴿فيها فاكهةٌ﴾ أي فيها من أنواع الفواكه المختلفة الألوان والطعوم والروائح ﴿والنخلُ ذاتُ الأكمام﴾ أي وفيها النخل التي يطلع فيها أوعية الثمر قال ابن كثير : أفرد النخل بالذكر لشرفه ونفعه رطباً ويابساً ، والأكمام هي أوعية الطلع كما قال ابن عباس ، وهو الذي يطلع فيه القنو ، ثم ينشق عنه العنقود فيكون بُسراً ثم رُطباً ، ثم ينضج ويتناهى ينعه واستواؤه[5] ﴿والحبُّ ذو العصف﴾ أي وفيها أنواع الحب كالحنطة والشعير وسائر ما يُتغذى به ، ذو التبن الذي هو غذاء الحيوان ﴿والريحانُ﴾ أي وفيها كل مشموم طيب الريح من النبات كالورد ، والفُلّ ، والياسمين وما شاكلها قال في البحر : ذكر تعالى الفاكهة أولاً ونكَّر لفظها لأن الانتفاع بها نفسها ، ثم ثنَّى بالنخل فذكر الأصل ولم يذكر ثمرها وهو التمر ، لكثرة الانتفاع بها من ليفٍ ، وسعف ، وجريدٍ ، وجذوع ، وجُمَّار ، وثمر ، ثم ذكر الحب الذي هو قوام عيش الإنسان وهو البر والشعير وكل ما له سنبل وأوراق ، ووصفه بقوله ﴿ذو العصف﴾ تنبيهاً على إنعامه عليهم بما يقوتهم به من الحب ، وما يقوت بهائمهم من ورقه وهو التبنُ ، وبدأ بالفاكهة وختم بالمشموم ليحصل ما به يُتفكه ، وما به يُتقوَّت ، وما به تقع اللذاذة من الرائحة الطيبة[6] ، ولما عدَّد نعمه خاطب الإنس والجن بقوله ﴿فبأي آلاء ربكما

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٢٧ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٥ . (٣) الأظهر أن المراد بالنجم هو النجم الذي في السماء ، وهو قول مجاهد واختيار ابن كثير ، وروي عن ابن عباس أن المراد بالنجم هو كل نبات ينجم من الأرض وليس له ساق لمقابلته بالشجر الذي له ساق ، واختار هذا القول ابن جرير ، والأول أظهر . (٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٦ . (٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٦ . (٦) البحر المحيط ٨/ ١٩٠ .

﴿تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾

تكذبان﴾ أي فبأي نعم الله يا معشر الإنس والجن تكذبان ؟ أليست نعم الله عليكم كثيرة لا تُحصى ؟ عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ سورة الرحمن على أصحابه فسكتوا ، فقال : مالي أسمع الجنَّ أحسن جواباً لربها منكم ؟ ما أتيتُ على قول الله تعالى ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ إلا قالوا : لا بشيءٍ من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد[١] . . ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووحدانيته فقال ﴿خلق الإنسان من صلصالٍ كالفخَّار﴾ أي خلق أباكم آدم من طين يابس ٍ يسمع له صلصلة أي صوتٌ إذا نُقر قال المفسرون : ذكر تعالى في هذه السورة أنه خلق آدم ﴿من صلصالٍ كالفخَّار﴾ وفي سورة الحِجر ﴿من صلصالٍ من حمأٍ مسنون﴾ أي من طين أسود متغير ، وفي الصافات ﴿من طين لازب﴾ أي يلتصق باليد ، وفي آل عمران ﴿كمثل آدم خلقه من تراب﴾ ولا تنافي بينهما ، وذلك لأن الله تعالى أخذه من تراب الأرض ، فعجنه بالماء فصار طيناً لازباً أي متلاصقاً يلصق باليد ، ثم تركه حتى صار حمأً مسنوناً أي طيناً أسود منتناً ، ثم صوَّره كما تُصوَّر الأواني ثم أيبسه حتى صار في غاية الصلابة كالفخار إذا نُقر صوَّت ، فالمذكور ههنا آخر الأطوار[٢] ﴿وخلق الجانَّ من مارجٍ من نار﴾ أي وخلق الجنَّ من لهبٍ خالص ٍ لا دخان فيه من النار قال ابن عباس : ﴿من مارج﴾ أي لهبٍ خالص ٍ لا دخان فيه وقال مجاهد : هو اللهب المختلط بسواد النار[٣] ، وفي الحديث (خُلقت الملائكة من نور ، وخُلق الجانُّ من مارجٍ من نار ، وخُلق آدم مما وُصف لكم)[٤] ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ أي فبأي نعم الله يا معشر الإنس والجن تكذبان ؟ قال أبو حيان : والتكرار في هذه الفواصل للتأكيد والتنبيه والتحريك ، وقال ابن قتيبة : إن هذا التكرار إنما هو لاختلاف النعم ، فكلما ذكر نعمةً كرر قوله ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾[٥] وقد ذُكرت هذه الآية إحدى وثلاثين مرة ، والاستفهام فيها للتقريع والتوبيخ ﴿ربُّ المشرقين وربُّ المغربين﴾ أي هو جل وعلا ربُّ مشرق الشمس والقمر ، وربُّ مغربهما ، ولمّا ذكر الشمس والقمر في قوله ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ ذكر هنا أنه رب مشرقهما ومغربهما ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ أي فبأي نعم الله التي لا تحصى تكذبان ؟ ﴿مرج البحرين يلتقيان﴾ أي أرسل البحر الملح والبحر العذب يتجاوران ويلتقيان ولا يمتزجان ﴿بينهما برزخٌ لا يبغيان﴾ أي بينهما حاجزٌ من قدرة الله تعالى لا يطغى أحدهما على الآخر بالممازجة قال ابن كثير : والمراد بالبحرين : الملح والحلو ، فالملح هذه البحار ، والحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس ، وجعل الله بينهما برزخاً وهو الحاجز من الأرض لئلا يبغي هذا على هذا فيفسد كل واحد منهما الآخر[٦] ﴿فبأي آلاء ربكما

(١) أخرجه الترمذي وصححه الحاكم . (٢) انظر حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٤٣٠ وحاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ١٥٤ .
(٣) روح المعاني ١٠٥/٢٧ . (٤) أخرجه مسلم وأحمد. (٥) البحر المحيط ١٩٠/٨ . (٦) مختصر تفسير ابن كثير ٤١٧/٣ .

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٣ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ۝٢٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٥ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٨ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى

تكذبان﴾ أي فبأي نعم الله تكذبان ؟ ﴿يخرُجُ منهما اللؤْلؤُ والمرجان﴾ أي يُخرج لكم من الماء اللؤلؤ والمرجان ، كما يخرج من التراب الحب والعصف والريحان ، قال الألوسي : واللؤلؤ صغار الدُر ، والمرجان كباره قاله ابن عباس ، وعن ابن مسعود أن المرجان الخرز الأحمر[١] ، والآية بيانٌ لعجائب صنع الله حيث يخرج من الماء المالح أنواع الحلية كالدر والياقوت والمرجان ، فسبحان الواحد المنّان ﴿فبأي آلاءِ ربكما تكذبان﴾ أي فبأي نعمة من نعم الله تكذبان ؟ ﴿ولهُ الجوار المُنْشآتُ في البحر كالأعلام﴾ أي وله جل وعلا السفن المرفوعات الجارياتُ في البحر كالجبال في العظم والضخامة قال القرطبي : ﴿كالأعلام﴾ أي كالجبال ، والعلمُ الجبل الطويل ، فالسفن في البحر كالجبال في البر[٢] ، ووجه الامتنان بها أن الله تعالى سيَّر هذه السفن الضخمة التي تشبه الجبال على وجه الماء ، وهو جسم لطيف مائع يحمل فوقه هذه السفن الكبار المحمَّلة بالأرزاق والمكاسب والمتاجر من قطر إلى قطر ، ومن إقليم إلى إقليم قال شيخ زاده : واعلم أن أصول الأشياء أربعة : الترابُ ، والماءُ ، والهواءُ ، والنارُ ، فبيَّن تعالى بقوله ﴿خلق الإنسان من صلصال﴾ أن التراب أصلٌ لمخلوق شريف مكرَّم ، وبيَّن بقوله ﴿وخلق الجانَّ من مارج من نار﴾ أن النار أيضاً أصلٌ لمخلوق آخر عجيب الشأن ، وبيَّن بقوله ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ أن الماء أيضاً أصل لمخلوق آخر له قدرٌ وقيمة ، ثم ذكر أن الهواء له تأثيرعظيم في جري السفن المشابهة للجبال فقال ﴿وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام﴾ وخصَّ السفن بالذكر لأن جريها في البحر لا صنع للبشر فيه ، وهم معترفون بذلك حيث يقولون : « لك الفُلك ولك المُلك » وإذا خافوا الغرق دعوا الله تعالى خاصة ﴿مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾[٣] ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ أي فبأي نعمةٍ من نعم الله تكذبان ؟ ﴿كلُ منْ عليها فانٍ﴾ أي كل من على وجه الأرض من الإنسان والحيوان هالك وسيموت ﴿ويبقى وجهُ ربِّك ذو الجلال والإكرام﴾ أي ويبقى ذات الله الواحد الأحد ، ذو العظمة والكبرياء والإنعام والإكرام كقوله ﴿كلُ شيءٍ هالكٌ إلا وجهه﴾ قال ابن عباس : الوجهُ عبارة عن الله جل وعلا الباقي الدائم قال القرطبي : ووجه النعمة في فناء الخلق التسويةُ بينهم في الموت ومع الموت تستوي الأقدام ، والموتُ سبب النقلة من دار الفناء إلى دار الثواب والجزاء[٤] ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ أي فبأي نعمةٍ من نعم الله تكذبان ﴿يسْألُهُ منْ في السَّموات والأرض﴾ أي يفتقر إليه تعالى كل من في السموات والأرض ، ويطلبون منه العون والرزق بلسان المقال أو بلسان الحال ﴿كلَّ يومٍ هو في شأنٍ﴾ أي كل ساعة ولحظة هو تعالى في شأن من شئون الخلق ، يغفر

(١) روح المعاني ٢٧/١٠٦ . (٢) تفسير القرطبي ١٧/ ١٦٤ . (٣) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٤٣٠ . (٤) تفسير القرطبي ١٧/١٦٥ .

شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾

ذنباً ، ويفرّج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين قال المفسرون : هي شئونٌ يُبديها ولا يبتديها أي يظهرها للخلق ولا ينشئها من جديد لأن القلم جفَّ على ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة ، فهو تعالى يرفع من يشاء ويضع من يشاء ، ويشفي سقيماً ويمرض سليماً ، ويعز ذليلاً ويذل عزيـزاً ، ويفقر غنياً ويغني فقيراً قال مقاتل : إن الآية نزلت في اليهود قالوا : إن الله تعالى لا يقضي يوم السبت شيئاً ، فردَّ الله عليهـم بذلك[1] ﴿فبـأي آلاء ربكمـا تكذبـان﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان أيها الإنس والجان ؟ ﴿سنفرغ لكـم أيهـا الثقـلان﴾ أي سنحاسبكم على أعمالكم يا معشر الإنس والجنّ قال ابن عباس : هذا وعيدٌ من الله تعالى للعباد ، وليس بالله تعالى شغل وهو فارغ[2] قال في البحر : أي ننظر في أموركم يوم القيامة ، لا أنه تعالى كان له شغل فيفرغ فيه ، وجرى هذا على كلام العرب يقول الرجل لمن يتهدده : سأفرغ لك أي سأتجرد للانتقام منك من كل ما شغلني[3] وقال البيضاوي : أي سنتجرد لحسابكم وجزائكم يوم القيامة ، وفيه تهديد مستعارٌ من قولك لمن تهدده : سأفرغ لك ، فإن المتجرد للشيء يكون أقوى عليه ، وأجدَّ فيه ، والثقلان : الإنسُ والجنُّ سميا بذلك لثقلهما على الأرض[4] ﴿فبـأي آلاء ربكمـا تكذبـان﴾ تقدم تفسيره ﴿يـا معشـر الجـنّ والإنس إنْ استطعتـم أنْ تنفُـذوا مـن أقطار السَّموات والأرض فانْفُذوا﴾ أي إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السمواتِ والأرض هاربين من الله ، فارين من قضائه فاخرجـوا منهـا ، وخلصـوا أنفسكم من عقابه ، والأمر للتعجيز ﴿لا تنفُـذُون إلاَّ بِسُلطـانٍ﴾ أي لا تقدرون على الخروج إلا بقوةٍ وقهر وغلبة ، وأنّى لكم ذلك ؟ قال ابن كثير : معنى الآية أنكم لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره ، بل هو محيطٌ بكم لا تقدرون على التخلص من حكمه ، أينما ذهبتم أحيط بكم ، وهذا في مقام الحشر حيث الملائكة محدقةٌ بالخلائق سبع صفوف من كل جانب ، فلا يقدر أحد على الذهاب إلا بسلطان أي إلا بأمر اللـه وإرادته ﴿يقول الإنسان يومئذٍ أيـن المفرُّ﴾[5] ؟ وهذا إنما يكون في القيامة لا في الدنيا بدليل قوله تعالى بعده ﴿يرسـل عليكما شواظٌ من نار﴾[6] ﴿فبـأي آلاء ربكمـا تكذبـان﴾ ؟ تقدم تفسيرة ﴿يُرسـل عليكمـا شـواظٌ مـن نار﴾ أي يرسل عليكما يوم القيامة لهب النار الحامية ﴿ونحـــاسٌ﴾ أي ونحاسٌ مذاب يصـبُّ فوق

---

(١) تفسير الألوسي ٢٧/١١١ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٩ . (٣) البحر المحيط ٨/ ١٩٤ .
(٤) تفسير البيضاوي ٣/ ٤٣٢ . (٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٩ . (٦) جنح بعض المتأخرين في هذه الأيام إلى تفسير الآية تفسيراً خاطئاً فزعموا أن الإنسان يمكنه الصعود إلى السموات وإلى الكواكب وفسّروا « السلطان » بالعلم وهو مخالف لأقوال المفسرين ويرده سياق الآية وسباقها ، فإن الآية سيقت لبيان أهوال الآخرة وشدائدها بدليل قوله تعالى قبلها ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾ وقوله بعدها ﴿يرسل عليكما شواظٌ من نارٍ ونحاس﴾ وقد اتفق المفسرون على أنها في الآخرة ، ونحن لا نستنكر إمكان وصول الإنسان ـ بالصواريخ والمخترعات الحديثة ـ إلى القمر أو بعض الكواكب ، فإن ذلك في مقدور الإنسان ويستطيع بواسطة العلم أن يدور حول الأرض ويعلو في الأجواء ولكنه لا يستطيع

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾

رءوسكم قال مجاهد : هو الصفر المعروف يصب على رءوسهم يوم القيامة وقال ابن عباس : ﴿نحاس﴾ هو الدخان الذي لا لهب فيه ، وقول مجاهد أظهر ﴿فلا تنتصران﴾ أي فلا ينصر بعضكم بعضاً ، ولا يخلصه من عذاب الله قال ابن كثير : ومعنى الآية لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكةُ وزبانية جهنم ، بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا فلا تجدون لكم ناصراً[1] ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ تقدم تفسيره ﴿فإذا انشقت السماءُ﴾ أي فإذا انصدعت يوم القيامة لتنزل الملائكة منها لتحيط بالخلائق من كل جانب ﴿فكانت وردةً كالدهان﴾ أي فكانت مثل الورد الأحمر من حرارة النار ، ومثل الأديم الأحمر أي الجلد الأحمر قاله ابن عباس ، وذلك من شدة الهول ، ومن رهبة ذلك اليوم العظيم ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ تقدم تفسيره ﴿فيومئذٍ لا يُسأل عن ذنبه إنسٌ ولا جان﴾ أي ففي ذلك اليوم الرهيب يوم تنشق السماء ، لا يُسأل أحد من المذنبين من الإنس والجن عن ذنبه ، لأن للمذنب علامات تدل على ذنبه كاسوداد الوجوه ، وزرقة العيون قال الإمام الفخر : لا يُسأل أحد عن ذنبه ، فلا يقال له : أنتَ المذنب أو غيرك ؟ ولا يقال : من المذنب منكم ؟ بل يعرفون بسواد وجوههم وغيره[2] ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ تقدم تفسيره ﴿يُعرفُ المجرمون بسيماهم﴾ أي يُعرف يوم القيامة أهل الإجرام بعلامات تظهر عليهم وهي ما يغشاهم من الكآبة والحزن قال الحسن : سواد الوجه وزرقة الأعين كقوله تعالى ﴿ونحشر المجرمين يومئذٍ زُرقاً﴾ وقوله ﴿يوم تبيضّ وجوهٌ وتسودّ وجوه﴾[3] ﴿فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ أي فتأخذ الملائكة بنواصيهم أي بشعور مقدم رءوسهم وأقدامهم فيقذفونهم في جهنم قال ابن عباس : يُؤخذ بناصية المجرم وقدميه فيكسر كما يكسر الحطب ثم يلقى في النار ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ تقدم تفسيره ﴿هذه جهنّم التي يُكذّب بها المجرمون﴾ أي يقال لهم تقريعاً وتوبيخاً : هذه النار التي أخبرتم بها فكذبتم قال ابن كثير : أي هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها ، ها هي حاضرةٌ تشاهدونها عياناً[4] ﴿يطوفون بينها وبين حميم آنٍ﴾ أي يترددون بين نار جهنم وبين ماءٍ حار

أن يصل إلى السماء ، فقد جعلها الله سقفاً محفوظاً ، أما القمر وسائر الكواكب فهي دون السماء الدنيا ويمكن الوصول إليها ، ـ ولكننا نستنكر ونتعجب ممن يتهجم على القرآن بدون علم ولا فهم ، ويقول في كتاب الله برأيه دون الرجوع إلى أقوال المفسرين المعتمدين ، وانظر ما كتبناه في مجلة رابطة العالم الإسلامي سنة ١٣٨٧ حول الوصول إلى القمر .

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٩ . (٢) التفسير الكبير للرازي ٢٩/ ١١٨ . (٣) تفسير القرطبي ١٧/ ١٧٥ . (٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٤٢١ .

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾

بلغ النهاية في الحرارة قال قتادة : يطوفون مرةً بين الحميم ، ومرة بين الجحيم ، والجحيم النارُ ، والحميم الشراب الذي انتهى حره ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ أي فبأي نعم الله تكذبان يا معشر الإنس والجان ؟

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان . . إلى . . تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾ من آية (٤٦) إلى آية (٧٨) نهاية السورة .

المناسبة : لما ذكر تعالى أحوال أهل النار ، ذكر ما أعدَّه للمؤمنين الأبرار من الجنان والولدان والحور الحسان ، ليتميز الفارق الهائل بين منازل المجرمين ومراتب المتقين ، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب .

اللغة : ﴿أفنان﴾ جمع فنن وهو الغصن قال الشاعر يصف حمامة :

ربَّ ورقاءَ هتوفٍ في الضُحى ذاتِ شدوٍ صدحَت في فنن
ذكرت إلفاً ودهراً خالياً فبكت شوقاً فهاجت حزني

﴿استبرق﴾ ما غلظ من الديباج وخشُن ﴿وجنى﴾ الجنى : ما يُجتنى من الشجر ويقطف ﴿يطمثهنَّ﴾ الطمثُ : الجماع المؤدي إلى خروج دم البكر ثم أطلق على كل جماع ، ومعنى ﴿لم يطمثهنَّ﴾ أي لم يصبهن بالجماع قبل أزواجهن أحد قال الفراء : الطمث الافتضاض وهو النكاح بالتدمية[1] ﴿مدهامتان﴾ سوداوان من شدة الخضرة ، والدهمةُ في اللغة السواد ﴿نضاختان﴾ فوارتان بالماء لا تنقطعان ﴿عبقري﴾ طنافس جمع عبقرية أي طنفسة ثخينة فيها أنواع النقوش قال الفراء : العبقري الطنافس الثخان منها وقال أبو عبيد : كل ثوبٍ وشي عند العرب فهو عبقري منسوب إلى أرضٍ يعمل فيها الوشي قال ذو الرمة :

حتى كأن رياض القف ألبسها من وشي عبقر تجليل وتنجيد[2]

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾

التفسير : ﴿ولِمَنْ خافَ مقامَ ربهِ جنَّتان﴾ أي وللعبد الذي يخاف قيامه بين يدي ربه للحساب جنتان : جنةٌ لسكنه ، وجنةٌ لأزواجه وخدمه ، كما هي حال ملوك الدنيا حيث يكون له قصرٌ ولأزواجه قصر[3] قال القرطبي : وإنما كانتا اثنتين ليضاعف له السرور بالتنقل من جهة إلى جهة وقال

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ١٨١ . (٢) البحر ٨/ ١٨٦ .
(٣) قال الفخر الرازي : لما قال تعالى في حق المجرم إنه يطوف بين نار ، وبين حميم آن ، قال في حق المؤمن الخائف ﴿ولمن خاف مقام ربه

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾

الزمخشري : جنة لفعل الطاعات ، وجنة لترك المعاصي وفي الحديث (جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن)[1] ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ثم وصف تعالى الجنتين فقال ﴿ذواتا أفنان﴾ أي ذواتا أغصان متفرعة وثمار متنوعة قال في البحر : وخصَّ الأفنان ـ وهي الغصون ـ بالذكر لأنها التي تورق وتثمر ، ومنها تمتد الظلال وتُجنى الثمار ﴿فبأي آلاء ربكما تُكذبان﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن ﴿فيهما عينان تجْريان﴾ أي في كل واحدة من الجنتين عين جارية ، تجري بالماء الزلال كقوله تعالى ﴿فيها عينٌ جارية﴾ قال ابن كثير : أي تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان ، فتثمر من جميع الألوان[2] قال الحسن : تجريان بالماء الزلال إحداهما التسنيم ، والأخرى السلسبيل ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ تقدم تفسيره ﴿فيهما من كل فاكهةٍ زوجان﴾ أي فيهما من جميع أنواع الفواكه والثمار صنفان : معروفٌ ، وغريب لم يعرفوه في الدنيا قال ابن عباس : ما في الدنيا ثمرةٌ حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل ، إلا أنه حلو ، وليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ تقدم تفسيره قال الفخر الرازي : إن قوله تعالى ﴿ذواتا أفنان﴾ و ﴿فيهما عينان تجريان﴾ و﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾ كلها أوصافٌ للجنتين المذكورتين ، وإنما فصل بين الأغصان والفواكه بذكر العينين الجاريتين على عادة المتنعمين ، فإنهم إذا دخلوا البستان لا يبادرون إلى أكل الثمار ، بل يقدمون التفرج على الأكل ، مع أن الإنسان في بستان الدنيا لا يأكل حتى يجوع ويشتهي شهوة شديدة فكيف في الجنة !! فذكر تعالى ما يتم به النزهة وهو خضرة الأشجار ، وجريان الأنهار ، ثم ذكر ما يكون بعد النزهة وهو أكل الثمار ، فسبحان من يأتي بالآيات بأحسن المعاني في أبين المباني[3] ﴿مُتكئين على فُرشٍ بطائنها من استبرق﴾ أي مضطجعين في جنان الخلد على فرشٍ وثيرة بطائنها من ديباج ـ وهو الحرير السميك ـ المزين بالذهب ، وهذا يدل على نهاية شرفها لأن البطانة إذا كانت بهذا الوصف فما بالك بالظهارة ؟ قال ابن مسعود : هذه البطائن فكيف لو رأيتم الظواهر ؟ وقال ابن عباس : لما سئل عن الآية : ذلك مما قال الله تعالى ﴿فلا تعلم نفسٌ ما أُخفي لهم من قرة أعين﴾[4] ﴿وجنَى الجنتين دانٍ﴾ أي ثمرها قريب يناله القاعد والقائم والنائم ، بخلاف ثمار الدنيا فإنها لا تنال إلا بكدٍ وتعب قال ابن عباس :

جنتان﴾ وقد ذكر تعالى الجنة ، والجنتين ، والجنات فقال ﴿إن المتقين في جنات﴾ وقال ﴿مثل الجنة التي وعد المتّقون﴾ فهي لاتصال أشجارها ومساكنها وعدم وقوع الفاصل بينها كمهامه وقفار صارت كجنة واحدة ، ولسعتها وتنوع أشجارها وكثرة مساكنها كأنها جنات ، ولاشتمالها على ما تلتذ به الروح والجسم كأنها جنتان انتهى من التفسير الكبير ٢٩/١٢٣ . (١) أخرجه البخاري .

(٢) مختصر ابن كثير ٣/٤٢٢ . (٣) التفسير الكبير ٢٩/١٢٥ . (٤) روح المعاني ٢٧/١١٨ .

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾

تدنو الشجرة حتى يجتنيها وليُ الله إن شاء قائماً ، وإن شاء قاعداً ، وإن شاء مضطجعاً[1] ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ تقدم تفسيره ﴿فيهنَّ قاصراتُ الطَّرف﴾ أي في تلك الجنان نساء قاصرات الطرف قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يرين غيرهم ، كما هو حال المخدَّرات العفائف ﴿لم يطْمِثْهُنَّ إنسٌ قبلهم ولا جان﴾ أي لم يمسهنَّ ولم يجامعهن أحدٌ قبل أزواجهنَّ لا من الإنس ولا من الجن ، بل هنَّ أبكار عذارى **قال الألوسي** : وأصلُ الطمث خروج الدم ولذلك يقال للحيض طمثٌ ، ثم أُطلق على جماع الأبكار لما فيه من خروج الدم ، ثم على كل جماع وإن لم يكن فيه خروج دم[2] ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن ؟ ﴿كأنهُنَّ الياقُوتُ والمرجان﴾ أي كأنهن يشبهن الياقوت والمرجان في صفائهن وحمرتهن قال قتادة : كأنهن في صفاء الياقوت وحمرة المرجان ، لو أدخلت في الياقوت سلكاً ثم نظرت إليه لرأيته من ورائه[3] وفي الحديث (إن المرأة من نساء أهل الجنة ليُرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة من حرير، حتى يُرى مخها)[4] ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ تقدم تفسيره ﴿هلْ جزاءُ الإحسان إلا الإحسانُ﴾ أي ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يُحسن إليه في الآخرة **قال أبو السعود** : أي ما جزاء الإحسان في العمل ، إلا الإحسان في الثواب[5] والغرضُ أنَّ من قدم المعروف والإحسان استحق الإنعام والإكرام ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ تقدم تفسيره ﴿ومن دونهما جنتان﴾ أي ومن دون تلك الجنتين في الفضيلة والقدر جنتان أخريان **قال المفسرون** : الجنتان الأوليان للسابقين ، والأخريان لأصحاب اليمين ولا شك أن مقام السابقين أعظم وأرفع لقوله تعالى ﴿فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ؟ وأصحابُ المشئمة ما أصحاب المشئمة ؟ والسابقون السابقون أولئك المقربون﴾ ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن ؟ ﴿مدهامتان﴾ أي سوداوان من شدة الخضرة والريّ **قال الألوسي** : والمراد أنهما شديدتا الخضرة ، والخضرةُ إذا اشتدت ضربت إلى السواد وذلك من كثرة الريّ بالماء[6] ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ تقدم تفسيره ﴿فيهما عينان نضاختان﴾ أي فوارتان بالماء لا تنقطعان وقال ابن مسعود وابن عباس : تنْضَخُ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور في دور أهل الجنة كزخ المطر[7] ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ تقدم تفسيره

(١) تفسير الخازن ٤/ ١٠ . (٢) تفسير الألوسي ٢٧/ ١١٩ . (٣) البحر المحيط ٨/ ١٩٨ .
(٤) أخرجه الترمذي عن ابن مسعود مرفوعاً وموقوفاً ، قال ابن كثير والموقوف أصح . (٥) تفسير أبي السعود ٥/ ١٢٧ . (٦) روح المعاني ٢٧/ ١٢١ . (٧) تفسير القرطبي ١٧/ ١٨٥ .

﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾﴾

﴿فيهما فاكهةٌ ونخلٌ ورمان﴾ أي في الجنتين من أنواع الفواكه كلها وأنواع النخل والرمان ، وإنما ذكر النخل والرمان تنبيهاً على فضلهما وشرفهما على سائر الفواكه ولأنهما غالب فاكهة العرب قال الألوسي : ثم إن نخل الجنة ورمانها وراء ما نعرفه[١] ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ تقدم تفسيره ﴿فيهن خيراتٌ حِسانٌ﴾ أي في تلك الجنان نساء صالحات كريمات الأخلاق ، حِسان الوجوه ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ تقدم تفسيره ﴿حورٌ مقصورات في الخيام﴾ أي هنَّ الحورُ العين المخدرات المستورات لا يخرجن لكرامتهن وشرفهن ، قد قصرن في خدورهن في خيام اللؤلؤ المجوَّف ، قال أبو حيان : والنساء تُمدح بذلك إذ ملازمتهن البيوت تدل على صيانتهن قال الحسن : لسن بطوَّافات في الطرق ، وخيامُ الجنة بيوت اللؤلؤ[٢] ، وفي الحديث (إنَّ في الجنة خيمةً من لؤلؤةٍ مجوفة ، عرضها ستون ميلاً ، في كل زاويةٍ منها أهلٌ ما يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمنون)[٣] ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ تقدم تفسيره ﴿لم يطْمثهنَّ إنسٌ قبلهم ولا جانٌّ﴾ أي لم يجامعهن ولم يغشهن أحد قبل أزواجهم لا من الإنس ولا من الجن قال في التسهيل : الجنتان المذكورتان أولاً للسابقين ، والجنتان المذكورتان ثانياً لأصحاب اليمين ، وانظر كيف جعل أوصاف الجنتين الأوليين أعلى من أوصاف الجنتين اللتين بعدهما ، فقال هناك ﴿فيهما عينان تجريان﴾ وقال هنا ﴿فيهما عينان نضاختان﴾ والجريُ أشدُّ من النضخ ، وقال هناك ﴿فيهما من كل فاكهةٍ زوجان﴾ وقال هنا ﴿فيهما فاكهة ونخل ورمان﴾ والأول أعم وأشمل ، وقال في صفة الحور هناك ﴿كأنهنَّ الياقوتُ والمرجان﴾ وقال هنا ﴿فيهنَّ خيراتٌ حِسان﴾ وليس كل حُسْنٍ كحسن الياقوت والمرجان فالوصف هناك أبلغ ، وقال هناك في وصف الفرش ﴿متكئين على فرش بطائنها من استبرق﴾ وهو الديباج وقال هنا ﴿متكئين على رفرفٍ خُضر﴾ ولا شك أن الفرش المعدَّة للاتكاء أفضل من فضل الخباء[٤] ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن ؟ ﴿مُتَّكئين على رفرفٍ خُضْرٍ﴾ أي مستندين على وسائد خضر من وسائد الجنة[٥] ﴿وعبقري حِسانٍ﴾ أي وطنافس ثخينة مزخرفة ، محلاَّة بأنواع الصور والزينة قال الصاوي : وهي نسبة إلى « عبقر » قرية بناحية اليمن ، يُنسج فيها بسط منقوشة بلغت النهاية في الحسن ، فقرَّب الله لنا فرش الجنتين بتلك البسط المنقوشة[٦] ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ أي فبأي نعمةٍ من نعم الله تعالى تكذبان يا

(١) روح المعاني ١٢٢/٢٧ . (٢) البحر المحيط ١٩٨/٨ . (٣) أخرجه البخاري .
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٨٦/٤ والقرطبي ١٨٣/١٧ . (٥) هذا قول الحسن وقال ابن عباس : الرفرف : فضول المحابس وهي ما يطرح على ظهر الفراش للنوم عليه . (٦) حاشية الصاوي ١٦٠/٤ .

﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾﴾

معشر الإنس والجن ﴿تبارك اسمُ ربك﴾ أي تنزه وتقدَّس الله العظيم الجليل ، وكثرت خيراته وفاضت بركاته ﴿ذي الجلال والإكرام﴾ أي صاحب العظمة والكبرياء ، والفضل والإنعام قال في البحر : لما ختم تعالى نعم الدنيا بقوله ﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ ختم نعم الآخرة بقوله ﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾ وناسب هناك ذكر البقاء والديمومة له تعالى بعد ذكر فناء العالم ، وناسب هنا ذكر البركة وهي النماء والزيادة عقب امتنانه على المؤمنين في دار كرامته وما آتاهم من الخير والفضل في دار النعيم[١]

البَــلاَغَــة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ المقابلة اللطيفة بين ﴿والسماء رفعها﴾ وبين ﴿والأرض وضعها﴾ وكذلك المقابلة بين ﴿خلق الإنسان من صلصالٍ كالفخار﴾ ﴿وخلق الجانَّ من مارج من نار﴾ .

٢ ـ التشبيه المرسل المجمل ﴿وله الجوار المنشآتُ في البحر كالأعلام﴾ أي كالجبال في العظم .

٣ ـ المجاز المرسل ﴿ويبقى وجه ربك﴾ أي ذاته المقدسة وهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل .

٤ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾ شبَّه انتهاء الدنيا وما فيها من تدبير شئون الخلق ومجيء الآخرة وبقاء شأن واحد وهو محاسبة الإنس والجن بفراغ من يشغله أمور فتفرَّغ لأمرٍ واحد ، والله تعالى لا يشغله شأن عن شأن وإنما هو على سبيل التمثيل .

٥ ـ الأمر التعجيزي ﴿إن استطعتم أن تنفذوا . . فانفذوا﴾ فالأمر هنا للتعجيز .

٦ ـ التشبيه البليغ ﴿فإذا انشقت السماء فكانت وردة﴾ أي كالوردة في الحمرة حذف وجه الشبه وأداة التشبيه فصار بليغاً .

٧ ـ الجناس الناقص ﴿وجنا الجنتين﴾ لتغير الشكل والحروف ، ويسمَّى جناس الاشتقاق .

٨ ـ الإيجاز بحذف الموصوف وإبقاء الصفة ﴿فيهن قاصرات الطرف﴾ أي نساءٌ قصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم .

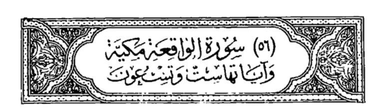
٩ ـ السجع المرصَّع غير المتكلف كأنه حبات در منظومة في سلكٍ واحد إقرأ قوله تعالى ﴿الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان﴾ وأمثاله في السورة كثير .

فَــائِــدَة : تسمى سورة الرحمن « عروس القرآن » لما ورد « لكل شيء عروسٌ ، وعروسُ القرآنِ سورةُ الرحمن »[٢] .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الرحمن »

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٠٠ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ١٥٢ .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* تشتمل هذه السورة الكريمة على أحوال يوم القيامة ، وما يكون بين يدي الساعة من أهوال ، وانقسام الناس إلى ثلاث طوائف (أصحاب اليمين ، أصحاب الشمال ، السابقون) .

* وقد تحدثت السورة عن مآل كل فريق ، وما أعده الله تعالى لهم من الجزاء العادل يوم الدين ، كما أقامت الدلائل على وجود الله ووحدانيته ، وكمال قدرته في بديع خلقه وصنعه ، في خلق الإنسان ، وإخراج النبات ، وإنزال الماء ، وما أودعه الله من القوة في النار . . ثم نوّهت بذكر القرآن العظيم ، وأنه تنزيل رب العالمين ، وما يلقاه الإنسان عند الاحتضار من شدائد وأهوال .

* وختمت السورة بذكر الطوائف الثلاث وهم أهل السعادة ، وأهل الشقاوة ، والسابقون إلى الخيرات من أهل النعيم ، وبيّنت عاقبة كل منهم ، فكان ذلك كالتفصيل لما ورد في أول السورة من إجمال ، والإشادة بذكر مآثر المقربين في البدء والختام .

فضـــلهـا : أ ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً)[1] .

ب ـ وأخرج الحافظ ابن عساكر في ترجمة (عبد الله بن مسعود) بسنده عن أبي ظبية قال: «مرض عبد الله مرضه الذي توفي فيه ، فعاده عثمان بن عفان فقال : ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي ، قال : فما تشتهي ؟ قال : رحمة ربي ، قال : ألا آمر لك بطبيب ؟ قال : الطبيبُ أمرضني ، قال : ألا آمر لك بعطاء ؟ قال : لا حاجة لي فيه ، قال : يكون لبناتك من بعدك ، قال : أتخشى على بناتي الفقر ؟ إني أمرت بناتي يقرأن كل ليلة سورة الواقعة ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً) فكان أبو ظبية لا يدعها[2]» .

* * *

قال الله تعالى : ﴿إذا وقعت الواقعة * ليس لوقعتها كاذبة . . إلى . . هـذا نزلهم يوم الدين﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٥٦) .

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى وابن عساكر . (٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٨١ .

اللغـــة : ﴿رُجَّت﴾ زلزلت وحركت تحريكاً شديداً ﴿بسَّت﴾ فُتِّت حتى صارت كالدقيق المبسوس ﴿هباء﴾ الهباء ما يتطاير في الهواء من الأجزاء الدقيقة ﴿ثُلة﴾ جماعة من ثللت الشيء أي قطعته قاله الزجاج فمعنى ثُلة كمعنى فرقة وزناً ومعنى ﴿موضونة﴾ منسوجة محكمة النسج كأن بعضها أُدخل في بعض قال الأعشى :

ومن نسج داود موضونة ... تُساق مع الحيّ عيراً فعيراً[1]

﴿يُصدَّعون﴾ صُدع القوم بالخمر لحقهم الصُداع في رءوسهم منها ﴿يُنزفون﴾ يسكرون فتذهب عقولهم ﴿مخضود﴾ خُضد شوكه أي قُطع قال أمية بن أبي الصلت :

إن الحدائقَ في الجنان ظليلةٌ ... فيها الكواعبُ سِدْرها مخْضود[2]

﴿طلح﴾ الطلح : شجر الموز ﴿منضود﴾ متراكب بعضه فوق بعض ﴿عرباً﴾ جمع عروب وهي المتحببة إلى زوجها ﴿سموم﴾ ريح حارة تدخل في مسام البدن ﴿يحموم﴾ اليحموم الشديد السواد ﴿الحميم﴾ الماء المغلي ﴿الهيم﴾ الإبل العطاش التي لا تروى لداء يصيبها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ

التفسير : ﴿إذا وقعت الواقعة﴾ أي إذا قامت القيامة التي لا بد من وقوعها ، وحدثت الداهية الطامة التي ينخلع لها قلب الإنسان ، كان من الأهوال ما لا يصفه الخيال قال البيضاوي : سميت واقعة لتحقق وقوعها[3] وقال ابن عباس : الواقعة اسم من أسماء القيامة كالصاخة والآزفة والطامة ، وهذه الأشياء تقتضي عظم شأنها[4] ﴿ليسَ لِوقعتها كاذبة﴾ أي لا يكون عند وقوعها نفس كاذبة تكذِّب بوقوعها كحال المكذبين اليوم ، لأن كل نفسٍ تؤمن حينئذٍ لأنها ترى العذاب عياناً كقوله تعالى ﴿فلمَّا رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده﴾[5] ﴿خافضةٌ رافعةٌ﴾ أي هي خافضة لأقوام رافعةٌ لآخرين ، تخفض أعداء الله في النار ، وترفع أولياء الله في الجنة قال الحسن : تخفض أقواماً إلى الجحيم وإن كانوا في الدنيا أعزة ، وترفع آخرين إلى أعلى عليين وإن كانوا في الدنيا وضعاء[6] .. ثم بيَّن تعالى متى يكون ذلك فقال ﴿إذا رُجَّت الأرضُ رجّاً﴾ أي زلزلت زلزالاً عنيفاً ، واضطربت اضطراباً شديداً ، بحيث ينهدم كل ما فوقها من بناء شامخ ، وطودٍ راسخ قال المفسرون : تُرجُّ كما يرجُّ الصبي في المهد حتى ينهدم كل ما عليها من بناء ، وينكسر كل ما فيها من جبال وحصون[7] ﴿وبُسَّت الجبالُ بسّاً﴾ أي فتِّت تفتيتاً حتى

(١) تفسير القرطبي ١٧/٢٠١ . (٢) البحر المحيط ٨/٢٠١ . (٣) تفسير البيضاوي ٣/٤٣٧ . (٤) تفسير المحيط ٨/٢٠٢ . (٥) هذا القول هو الأرجح في تفسير الآية الكريمة وهو اختيار البيضاوي وأبي السعود والألوسي ، واختيار ابن كثير أن المعنى ليس لوقوعها ـ إذا أراد الله ـ صارف يصرفها ولا دافع يدفعها ، وروي نحو هذا عن الحسن وقتادة : والأول أدق وأظهر والله أعلم . (٦) مختصر ابن كثير ٣/٤٢٨ . (٧) تفسير القرطبي ١٧/١٩٦ .

بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾

صارت كالدقيق المبسوس ـ وهو المبلول ـ بعد أن كانت شامخة ﴿فكانت هباءً مُنبثاً﴾ أي فصارت غباراً متفرقاً متطايراً في الهواء ، كالذي يُرى في شعاع الشمس إذا دخل النافذة فهذا هو الهباء[1] ، والمنبثُّ المتفرق ، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ وقوله ﴿وسُيِّرت الجبالُ فكانت سراباً﴾ ﴿وكنتم أزواجاً ثلاثةً﴾ أي وكنتم ـ أيها الناس ـ أصنافاً وفرقاً ثلاثة « أهل اليمين ، وأهل الشمال ، وأهل السبق » فأما السابقون فهم أهل الدرجات العُلى في الجنة ، وأما أصحاب اليمين فهم سائر أهل الجنة ، وأما أصحاب الشمال فهم أهل النار ، وهذه مراتب الناس في الآخرة قال ميمون بن مهران : اثنان في الجنة وواحد في النار[2] ، ثم فصَّلهم تعالى بقوله ﴿فأصحاب الميمنة ما أصحابُ الميمنة﴾ ؟ استفهام للتفخيم والتعظيم أي هل تدري أيُّ شيء أصحاب الميمنة ؟ من هم وما هي حالهم وصفتهم ؟ إنهم الذين يؤتون صحائفهم في أيمانهم ، فهو تعجيبٌ لحالهم ، وتعظيم لشأنهم في دخولهم الجنة وتنعمهم بها ﴿وأصحابُ المشأمةِ ما أصحابُ المشأمة﴾ ؟ أي هل تدري من هم ؟ وما هي حالهم وصفتهم ؟ إنهم الذين يؤتون صحائفهم بشمالهم ، ففيه تعجيب لحالهم في دخولهم النار وشقائهم قال القرطبي : والتكرير في ﴿ما أصحابُ الميمنة﴾ و ﴿ما أصحاب المشأمة﴾ للتفخيم والتعجيب كقوله ﴿الحاقة ما الحاقة﴾ وقوله ﴿القارعةُ ما القارعة﴾[3] وقال الألوسي : والمقصود التفخيم في الأول ، والتفظيع في الثاني ، وتعجيب السامع من شأن الفريقين في الفخامة والفظاعة كأنه قيل : فأصحاب الميمنة في غاية حسن الحال ، وأصحاب المشأمة في غاية سوء الحال[4] ﴿والسَّابقون السَّابقون﴾ هذا هو الصنف الثالث من الأزواج الثلاثة أي والسابقون إلى الخيرات والحسنات ، هم السابقون إلى النعيم والجنات ، ثم أثنى عليهم بقوله ﴿أولئك المقربون﴾ أي أولئك هم المقربون من الله ، في جواره ، وفي ظل عرشه ، ودار كرامته ﴿في جنات النعيم﴾ أي هم في جنات الخلد يتنعمون فيها قال الخازن : فإن قلت : لم أخَّر ذكر السابقين وكانوا أولى بالتقديم على أصحاب اليمين ؟ قلت : فيه لطيفة وذلك أنَّ الله ذكر في أول السورة الأمور الهائلة عند قيام الساعة تخويفاً لعباده ، فإما محسنٌ فيزداد رغبةً في الثواب ، وإمّا مسيء فيرجع عن إساءته خوفاً من العقاب ، فلذلك قدَّم أصحاب اليمين ليسمعوا ويرغبوا ، ثم ذكر أصحاب الشمال ليرهبوا ، ثم ذكر السابقين وهم الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر ليجدوا ويجتهدوا[5] ﴿ثُلَّةٌ من الأولين﴾ أي السابقون المقربون جماعة كثيرة من الأمم السالفة ﴿وقليلٌ من الآخرين﴾

(١) هذا قول ابن عباس . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٢٨ . (٣) تفسير القرطبي ١٧/ ١٩٩ .
(٤) تفسير الألوسي ٢٧/ ١٣١ . (٥) تفسير الخازن ٤/ ١٥ .

عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾

أي وهم قليلٌ من هذه الأمة قال القرطبي : وسمُّوا قليلاً بالإضافة إلى من كان قبلهم ، لأن الأنبياء المتقدمين كانوا كثرة ، فكثر السابقون إلى الإيمان منهم ، فزادوا على عدد من سبق إلى التصديق من أمتنا ، قال الحسن : سابقوا من مضى أكثر من سابقينا ثم تلا الآية [١] وقيل : إن المراد بقوله ﴿والسابقون السابقون﴾ أول هذه الأمة ، والآخرون المتأخرون من هذه الأمة ، فيكون كلا الفريقين من أمة محمد ﷺ [٢] ﴿على سُرُرٍ موضونةٍ﴾ أي جالسين على أسرّة منسوجة بقضبان الذهب ، مرصَّعة بالدر والياقوت قال ابن عباس : ﴿موضونة﴾ أي مرمولة بالذهب يعني منسوجة به [٣] ﴿متكئين عليها﴾ أي حال كونهم مضطجعين على تلك الأسرَّة شأن المنعَّمين المترفين ﴿متقابلين﴾ أي وجوه بعضهم إلى بعض ، ليس أحد وراء أحد ، وهذا أدخل في السرور ، وأكمل في أدب الجلوس ﴿يطوفُ عليهم ولدانٌ مخلَّدون﴾ أي يدور عليهم للخدمة أطفال في نضارة الصبا ، لا يموتون ولا يهرمون قال أبو حيان : وُصفوا بالخلد - وإن كان كل من في الجنة مخلداً - ليدل على أنهم يبقون دائماً في سنِّ الولدان ، لا يتحولون ولا يكبرون كما وصفهم جل وعلا [٤] ﴿بأكواب﴾ أي بأقداح كبيرة مستديرة لا عُرى لها ﴿وأباريق﴾ جمع إبريق أي وبأباريق لها عُرى تبرق من صفاء لونها ﴿وكأسٍ من معين﴾ أي وكأسٍ من خمرٍ لذة جارية من العيون قال ابن عباس : لم تعصر كخمر الدنيا بل هي من عيون سارحة قال القرطبي : والمعين الجاري من ماء أو خمر ، غير أن المراد في هذا الموضع الخمر الجارية من العيون ، ليست كخمر الدنيا التي تستخرج بعصرٍ وتكلف ومعالجة [٥] ﴿لا يُصدَّعون عنها﴾ أي لا تتصدع رءوسهم من شربها ﴿ولا يُنزِفون﴾ أي ولا يسكرون فتذهب بعقولهم كخمر الدنيا قال ابن عباس : في الخمر أربع خصال : السُّكرُ ، والصُّداع ، والقيءُ ، والبول ، وقد ذكر تعالى خمر الجنة ونزَّهها عن هذه الخصال الذميمة [٦] ﴿وفاكهةٍ ممَّا يتخيَّرون﴾ أي ولهم فيها فاكهة كثيرة يختارون ما تشتهيه نفوسهم لكثرتها وتنوعها ﴿ولحم طيرٍ ممَّا يشْتهون﴾ أي ولحم طيرٍ مما يحبون ويشتهون قال ابن عباس : يخطر على قلب أحدهم لحم الطير فيطير حتى يقع بين يديه على ما اشتهى مقلياً أو مشوياً وفي الحديث (إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشوياً) [٧] قال الرازي : وقدَّم الفاكهة على اللحم لأن أهل الجنة يأكلون لا عن جوع بل

---

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٠٠ . (٢) القول الأول الذي أسلفناه هو اختيار جمهور المفسرين ، كابن جرير ، وأبي السعود ، والقرطبي ، والبيضاوي ، والألوسي ، واختار ابن كثير القول الثاني فقال : القول الذي اختاره ابن جرير فيه نظر بل هو ضعيف ، لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن ، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها . . الخ أقول : قد علمت أن الأنبياء كثرة كثيرة وكلهم من السابقين ، فإذا انضم إليهم أتباعهم من الخواص كانوا أكثر من خواص هذه الأمة ، وتبقى أمة محمد ﷺ أكثر الأمم دخولاً الجنة وأفضل الأمم بمجموعها لا بخواصها ، فيندفع بذلك الإشكال والله أعلم . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٤٣٠ . (٤) البحر المحيط ٨/ ٢٠٥ . (٥) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٠٣ .
(٦) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٣٠ . (٧) أخرجه ابن أبي حاتم كذا في ابن كثير ٣/ ٤٣١ .

﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾

للتفكه ، فميلهم إلى الفاكهة أكثر كحال الشبعان في الدنيا فلذلك قدمها[١] ﴿وحورٌ عينٌ* كأمثال اللؤلؤِ المكنون﴾ أي ولهم مع ذلك النعيم نساء من الحور العين ، الواسعات العيون ، في غاية الجمال والبهاء ، كأنهن اللؤلؤ في الصفاء والنقاء ، الذي لم تمسه الأيدي قال في التسهيل : شبههن باللؤلؤ في البياض ، ووصفه بالمكنون لأنه أبعد عن تغيير حسنه ، وحين سألت « أم سلمة » رسول الله ﷺ عن هذا التشبيه قال « صفاؤهن كصفاء الدر في الأصداف الذي لم تمسه الأيدي »[٢] ﴿جزاءً بما كانوا يعملون﴾ أي جعلنا لهم ذلك كله جزاءً لعملهم الصالح في الدنيا . . ثم أخبر تعالى عن كمال نعيمهم في الجنة فقال ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً﴾ أي لا يطرق آذانهم فاحشُ الكلام ، ولا يلحقهم إثمٌ مما يسمعون قال ابن عباس : لا يسمعون باطلاً ولا كذباً[٣] ﴿إلا قيلاً سلاماً سلاماً﴾ أي إلا قول بعضهم لبعض سلاماً سلاماً ، يُحيي به بعضهم بعضاً ويفشون السلام فيما بينهم قال في البحر : والظاهر أنه استثناء منقطع لأنه لم يندرج في اللغو ولا التأثيم[٤] وقال أبو السعود : والمعنى أنهم يفشون السلام فيسلّمون سلاماً بعد سلام ، أو لا يسمع كلٌ منهم إلا سلام الآخر بدءاً أو ردّاً[٥] . . ثم شرع في تفصيل أحوال الصنف الثاني وهم أصحاب اليمين فقال ﴿وأصحابُ اليمين ما أصحابُ اليمين﴾ ؟ استفهام للتعظيم والتعجيب من حالهم أي ما أدراك من هم ، وما هي حالهم ؟ ﴿في سدْرٍ مخضود﴾ أي هم تحت أشجار النبق الذي قطع شوكه قال المفسرون : والسِّدرُ : شجر النبق ، والمخضود الذي خُضد أي قُطع شوكه ، وفي الحديث : (أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : إن الله تعالى ذكر في الجنة شجرة تؤذي صاحبها ، فقال : وما هي ؟ قال : السدر فإن له شوكاً ، فقال رسول الله ﷺ : أليس اللهُ يقول ﴿في سدْرٍ مخضود﴾ ؟ خضَدَ اللهُ شوكه فجعل مكان كل شوكةٍ ثمرة ، وإن الثمرة من ثمره تفتَّق عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام ، ما فيها لونٌ يشبه الآخر)[٦] ﴿وطلحٍ منضود﴾ هو شجر الموز ومعنى ﴿منضود﴾ أي متراكم قد نُضد بالحمل من أسفله إلى أعلاه ﴿وظلٍّ ممدود﴾ أي وظل دائم باقٍ لا يزول ولا تنسخه الشمس ، لأن الجنة ظل كلها لا شمس فيها ﴿لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً﴾ وفي الحديث (إن في الجنة شجرةً يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها واقرءوا إن شئتم ﴿وظل ممدود﴾[٧] وقال الرازي : ومعنى ﴿ممدود﴾ أي لا زوال له فهو دائم ﴿أكلُها دائم وظلُّها﴾ أي دائم ، والظلُّ ليس ظل الأشجار ، بل ظل يخلقه الله تعالى[٨] ﴿وماءٍ مسكوب﴾ أي وماءٍ جارٍ دائماً لا

---

(١) التفسير الكبير ٢٩/ ١٥٣ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٨٩ . (٣) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٠٦ . (٤) البحر المحيط ٨/ ٢٠٦ .
(٥) تفسير أبي السعود ٥/ ١٣٠ . (٦) أخرجه الحاكم والبيهقي وانظر روح المعاني ٢٧/ ١٤٠ . (٧) أخرجه البخاري . (٨) التفسير الكبير ٢٩/ ١٦٤ .

﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ﴿٣٧﴾ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾

ينقطع ، يجري في غير أخدود قال القرطبي : كانت العرب أصحاب بادية ، والأنهار في بلادهم عزيزة ، لا يصلون إلى الماء إلا بالدلو والرشاء ، فوعدوا بالجنة بأسباب النزهة وهي الأشجار وظلالها ، والمياه والأنهار وجريانها[1] ﴿وفاكهةٍ كثيرة لا مقطوعةٍ ولا ممنوعة﴾ أي وفاكهةٍ كثيرة متنوعة ، ليست بالقليلة العزيزة كما كانت في بلادهم ، لا تنقطع كما تنقطع ثمار الدنيا في الشتاء ، وليست ممنوعة عن أحد ، قال ابن عباس : لا تنقطع إذا جُنيت ، ولا تمتنع من أحدٍ إذا أراد أخذها[2] وفي الحديث (ما قُطعت ثمرةٌ من ثمار الجنة إلا عاد مكانها أخرى)[3] ﴿وفُرشٍ مرفُوعة﴾ أي عالية وطيئة ناعمة وفي الحديث (ارتفاعها كما بين السماء والأرض ، ومسيرة ما بينهما خمس مائة عام)[4] قال الألوسي : ولا تستبعد هذا من حيث العروجُ والنزولُ ، فالعالم عالم آخر فوق طور عقلك[5] تنخفض للمؤمن إذا أراد الجلوس عليها ثم ترتفع به ، والله على كل شيء قدير ﴿إنّا أنشأناهنّ إنشاءً﴾ أي خلقنا نساء الجنة خلقاً جديداً ، وأبدعناهن إبداعاً عجيباً ، قال في التسهيل : ومعنى إنشاء النساء أن الله تعالى يخلقهن في الجنة خلقاً آخر في غاية الحسن بخلاف الدنيا ، فالعجوز ترجع شابة ، والقبيحة ترجع جميلة[6] قال ابن عباس : يعني الآدميات العجائز الشمط خلقهن الله بعد الكبر والهرم خلقاً آخر[7] ﴿فجعلناهُنّ أبكاراً﴾ أي فجعلناهن عذارى ، كلما أتاهنّ أزواجهن وجدوهنّ أبكاراً ﴿عُرُباً﴾ جمع عروب وهي المتحببة لزوجها العاشقة له قال مجاهد : هنّ العاشقات لأزواجهن المتحببات لهن اللواتي يشتهين أزواجهن[8] ﴿أتراباً﴾ أي مستويات في السنّ مع أزواجهن ، في سنّ أبناء ثلاث وثلاثين ، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : (سألت النبي ﷺ عن قوله تعالى ﴿إنّا أنشأناهنّ إنشاءً * فجعلناهنّ أبكاراً * عُرُباً أتْراباً﴾ فقال يا أم سلمة : هنّ اللواتي قُبضن في الدنيا عجائز ، شُمطاً ، عُمشاً ، رُمصاً ، جعلهن الله بعد الكبر أتراباً على ميلادٍ واحد في الاستواء)[9] وفي الحديث أن امرأة عجوزاً جاءت النبي ﷺ فقالت يا رسول الله : أُدع الله أن يُدخلني الجنة ، فقال : يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز ، فولَّت تبكي ، فقال : أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز ، فإن الله تعالى يقول ﴿إنّا أنشأناهنّ إنشاءً * فجعلناهن أبكاراً﴾[10] ﴿لأصحابِ اليمين﴾ أي أنشأنا هؤلاء النساء الأبكار لأصحاب اليمين ليستمتعوا بهنّ في الجنة ، ثم قال تعالى ﴿ثُلَّةٌ من الأولين * وثُلَّةٌ من الآخرين﴾ أي هم جماعة من الأولين من الأمم الماضية ، وجماعة من المتأخرين من أمة محمد ﷺ ، قال في البحر : ولا تنافي بين هذه الآية ﴿وثلةٌ من الآخرين﴾ وبين الآية التي سبقتها وهي قوله ﴿وقليلٌ من الآخرين﴾ لأن الثانية في السابقين فلذلك قال ﴿وقليل من الآخرين﴾

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٠٩ . (٢) تفسير الخازن ٤/ ١٨ . (٣) أخرجه الطبراني . (٤) أخرجه النسائي والترمذي .
(٥) روح المعاني ٢٧/ ١٤١ . (٦) التسهيل ٤/ ٩٠ . (٧) تفسير الخازن ٤/ ١٨ . (٨) تفسير الألوسي ١٤٣/٢٧ .
(٩) تفسير القرطبي ١٧/ ٢١٠ والحديث أخرجه الترمذي عن أنس مرفوعاً (١٠) أخرجه الترمذي في الشمائل .

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾﴾

وهذه في أصحاب اليمين ولذلك قال ﴿وثُلَّةٌ من الآخرين﴾[1] . . ثم شرع تعالى في بيان الصنف الثالث وهم أهل النار فقال ﴿وأصحابُ الشمالِ ما أصحابُ الشمال﴾ استفهام بمعنى التهويل والتفظيع والتعجيب من حالهم أي وأصحابُ الشمال ـ وهم الذين يعطون كتبهم بشمائلهم ـ ما أصحاب الشمال ؟ أي ما حالهم وكيف مآلهم ؟ ثم فصَّل تعالى حالهم فقال ﴿في سمومٍ وحميمٍ﴾ أي في ريح حارة من النار تنفذ في المسام ، وماءٍ شديد الحرارة ﴿وظلٍ من يحموم﴾ أي وفي ظلٍ من دخان أسود شديد السواد ﴿لا باردٍ﴾ أي ليس هذا الظلُ بارداً يستروح به الإنسان من شدة الحر ﴿ولا كريم﴾ أي وليس حسن المنظر يُسرُّ به من يستفيء بظله قال الخازن : إن فائدة الظل ترجع إلى أمرين : أحدهما : دفع الحر ، والثاني : حسن المنظر وكون الإنسان فيه مكرماً ، وظلُّ أهل النار بخلاف هذا لأنهم في ظل من دخان أسود حار[2] . . ثم بيَّن تعالى سبب استحقاقهم ذلك فقال ﴿إنَّهم كانوا قبل ذلك مُتْرفين﴾ أي لأنهم كانوا في الدنيا منعَّمين ، مقبلين على الشهوات والملذات ﴿وكانوا يُصرُّون على الحِنثِ العظيم﴾ أي وكانوا يداومون على الذنب العظيم وهو الشرك بالله قال المفسرون : لفظ الإصرار يدل على المداومة على المعصية ، والحنثُ هو الذنب الكبير والمراد به هنا الكفر بالله كما قاله ابن عباس ﴿وكانوا يقولون أئِذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون﴾ أي هل سنبعث بعد أن تصبح أجسادنا تراباً وعظاماً نخرة ؟ وهذا استبعادٌ منهم لأمر البعث وتكذيب له ﴿أوَ آباؤنا الأولون﴾ ؟ تأكيدٌ للإنكار ومبالغة فيه أي وهل سيبعث آباؤنا الأوائل بعد أن بليت أجسامهم وتفتَّتت عظامهم ؟ ﴿قل إنَّ الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقاتِ يومٍ معلوم﴾ أي قل لهم يا محمد : إن الخلائق جميعاً السابقين منهم واللاحقين ، سيجمعون ويحشرون ليوم الحساب الذي حدَّده الله بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر ﴿ذلك يومٌ مجموعٌ له الناس وذلك يومٌ مشهود . وما نؤخره إلا لأجلٍ معدود﴾ ﴿ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجرٍ من زقوم﴾ أي ثم إنكم يا معشر كفار مكة ، الضالون عن الهدى ، المكذبون بالبعث والنشور ، لآكلون من شجر الزقوم الذي ينبت في أصل الجحيم ﴿فمالئون منها البطون﴾ أي فمالئون بطونكم من تلك الشجرة الخبيثة لغلبة الجوع عليكم ﴿فشاربون عليه من الحميم﴾ أي فشاربون عليه

(١) البحر المحيط ٨/٢٠٧ . (٢) تفسير الخازن ٤/٢١ .

﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾

الماء الحار الذي اشتد غليانه ﴿فشاربون شُرب الهيم﴾ أي فشاربون شرب الإبل العطاش قال ابن عباس : الهيمُ الإبل العطاش التي لا تروى لداء يصيبها[1] وقال أبو السعود : إنه يسلط على أهل النار من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقوم الذي هو كالمُهل ، فإذا ملأوا منه بطونهم ـ وهو في غاية الحرارة والمرارة ـ سُلِّط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم الذي يقطع أمعاءهم ، فيشربونه شرب الهيم وهي الإبل التي بها الهيام وهو داء يصيبها فتشرب ولا تروى[2] ﴿هذا نزلُهم يوم الدين﴾ أي هذه ضيافتهم وكرامتهم يوم القيامة ، وفيه تهكم بهم قال الصاوي : والنُزُل في الأصل ما يهيأ للضيف أول قدومه من التحف والكرامة ، فتسمية الزقوم نُزلاً تهكم بهم .

* * *

قال الله تعالى : ﴿نحن خلقناكم فلولا تصدقون . . إلى . . فسبح باسم ربك العظيم﴾ من آية (٥٧) إلى آية (٩٦) نهاية السورة .

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى الأشقياء المجرمين وأحوالهم في نار جهنم ، ذكر هنا الأدلة والبراهين على قدرة الله ووحدانيته في بديع خلقه وصنعه ، لتقوم الحجة على المنكر المكذب بوجود الله ، وختم السورة الكريمة بالتنويه بذكر أهل السعادة ، وأهل الشقاوة ، والسابقين إلى الخيرات ، ليكون ذلك كالتفصيل لما ورد في أول السورة من الإجمال ، والإشادة بذكر مآثر المقربين في البدء والمآل .

اللغَة : ﴿تفكَّهون﴾ تفكَّه بالشيء تمتَّع به ، ورجلٌ فكه منبسط النفس غير مكترث بشيء ﴿المزن﴾ السحاب جمع مُزْنة قال الشاعر :

ونحن كماء المُزن ما في نصابنا كَهَامٌ ولا فينا يُعدُّ بخيل[3]

﴿تورون﴾ أورى النار من الزناد قدحها ﴿المقوين﴾ المسافرين يقال أقوى الرجل إذا دخل القواء وهو القفر ، والقوى الجوع قال الشاعر :

وإني لأختار القوى طاوي الحشا محافظةً من أن يُقال لئيم[4]

﴿مدهنون﴾ المدهن : الذي ظاهره خلاف باطنه ، كأنه شُبِّه بالدهن في سهولة ظاهره ومنه المداهنة ﴿مدينين﴾ مجزيين ومحاسبين من الدين بمعنى الجزاء ﴿فروحٌ﴾ الرَّوح بفتح الراء الاستراحة ﴿ريحان﴾ الريحان : كل مشموم طيب الريح من النبات .

---

(١) تفسير القرطبي ٧/ ٢١٥ . (٢) تفسير أبي السعود ٥/ ١٣٢
(٣) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٢٠ . (٤) نفس المرجع السابق ١٧/ ٢٢٢ .

نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾

التفسير : ﴿نحنُ خلقناكم فلولا تُصدِّقون﴾ أي نحن خلقناكم أيها الناسُ من العدم ، فهلاَّ تصدقون بالبعث ؟ فإن من قدر على البدء قادرٌ على الإعادة ﴿أفرأيتم ما تُمْنون﴾ أي أخبروني عمَّا تصبُّونه من المنيّ في أرحام النساء ﴿أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾[1] ؟ أي هل أنتم تخلقون هذا المنيَّ بشراً سوياً ، أم نحن بقدرتنا خلقناه وصوَّرناه ؟! قال القرطبي : وهذا احتجاج على المشركين وبيانٌ للآية الأولى والمعنى إذا أقررتم بأنا خالقوه لا غيرنا فاعترفوا بالبعث[2] ﴿نحن قدَّرنا بينكُم الموت﴾ أي نحن قضينا وحكمنا عليكم بالموت وساوينا بينكم فيه قال الضحاك : ساوى فيه بين أهل السماء والأرض[3] ، سواء فيه الشريف والوضيع ، والأمير والصعلوك ﴿وما نحنُ بمسبُوقين﴾ أي وما نحن بعاجزين ﴿على أنْ نُبدِّلَ أمثالكُم﴾ أي على أن نهلككم ونستبدل قوماً غيركم يكونون أطوع لله منكم كقوله تعالى ﴿إن يشأ يُذهبكم ويأتِ بخلقٍ جديد﴾ ﴿ونُنْشئكم فيما لا تعلمون﴾ أي ولسنا بعاجزين أيضاً أن نعيدكم يوم القيامة في خلقةٍ لا تعلمونها ولا تصل إليها عقولكم ، والغرضُ أن الله قادر على أن يهلكهم وأن يعيدهم وأن يبعثهم يوم القيامة ، ففي الآية تهديد واحتجاج على البعث[4] ﴿ولقد علمتُم النَّشأة الأولى﴾ أي ولقد عرفتم أن الله أنشأكم من العدم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، فخلقكم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴿فلولا تذكَّرون﴾ أي فهلا تتذكرون بأن الله قادر على إعادتكم كما قدر على خلقكم أول مرة؟ ﴿أولاَ يذكُر الإنسان أنَّا خلقناه من قبل ولم يكُ شيئاً﴾ ؟ ! ﴿أفرأيتم ما تحرثون﴾ هذه حجة أخرى على وحدانية الله وقدرته أي أخبروني

(١) يقول شهيد الدعوة « سيد قطب » في تفسيره الظلال ما نصه : « هذه هي الحقيقة الهائلة المتكررة في كل لحظة ، ينساها الإنسان لتكرارها أمام عينيه ، وهي أعجب من كل عجيب تبدعها شطحات الخيال ! ! نطفةٌ تُمنى وتراق وهي من إفرازات هذا الجسد الإنساني الكثيرة كالعرق ، والدمع ، والمخاط ، فإذا هي بعد فترةٍ من الزمن إنسان سميع بصير ، وإذا هذا الإنسان ذكرٌ وأنثى ! ! كيف تمت هذه العجيبة التي لم تكن ـ لولا وقوعها ـ تخطر على الخيال ؟ ! أين كان هذا الإنسان كامناً بعظمه ولحمه وجلده ، وعروقه وشعره وأظافره ، وخلائقه وطباعه ؟ أي قلب بشري يقف أمام هذه الحقيقة الهائلة العجيبة ، ثم يتمالك أو يتماسك ـ فضلاً عن أن يجحد ويتبجح ـ ويقول : إنها وقعت هكذا والسلام ؟ ! إن دور البشر في أمر هذا الخلق لا يزيد على أن يودع الرجل ما يُمْني رحم امرأة ، ثم ينقطع عمله وعملها ، وتأخذ يد القدرة في العمل وحدها في هذا الماء المهين ، تعمل وحدها في خلقه وتنميته ، وبناء هيكله ونفخ الروح فيه ، ومنذ اللحظة الأولى تتم المعجزة وتقع الخارقة التي لا يصنعها إلا الله ، وهذا القدر من التأمل يدركه كل إنسان ، وهذا يكفي لتقدير هذه المعجزة والتأثر بها ، ولكن قصة هذه الخلية الواحدة منذ أن تُمنى قصة أغرب من الخيال ، هذه الخلية الواحدة تبدأ في الانقسام والتكاثر ، فإذا هي بعد فترة ملايين الملايين من الخلايا ، كل مجموعة من هذه الخلايا ذات خصائص عجيبة ، فهذه خلايا عظام ، وهذه خلايا عضلات ، وهذه خلايا جلد ، وهذه خلايا أعصاب . . ثم هذه خلايا لعمل عين ، وهذه لعمل لسان ، وهذه لعمل أذن ، وكل منها تعرف مكان عملها ، فلا تخطىء خلايا العين مثلاً فتطلع في البطن أو القدم ، فسبحان العظيم القدير القائل ﴿أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾ . (٢) تفسير القرطبي ١٧/ ٢١٦ . (٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٣٦ . (٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٩١ .

﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾

عن البذر الذي تلقونه في الطين ﴿أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾ ؟ أي أأنتم تنبتونه وتنشئونه حتى يكون فيه السنبل والحبُّ أم نحن الفاعلون لذلك ؟ فإذا أقررتم أن الله هو الذي يخرج الحبَّ وينبت الزرع ، فكيف تنكرون إخراجه الأموات من الأرض ؟ ﴿لو نشاء لجعلناه حُطاماً﴾ أي لو أردنا لجعلنا هذا الزرع هشيماً متكسراً لا ينتفع به في طعام ولا غيره قال القرطبي : والحُطام الهشيم الهالك الذي لا يُنتفع به في مطعم ولا غذاء ، فنبههم بذلك على أمرين : أحدهما : ما أولاهم به من النعم في زرعهم ليشكروه الثاني : ليعتبروا في أنفسهم فكما أنه تعالى يجعل الزرع حُطاماً إذا شاء ، كذلك يهلكهم إذا شاء ليتعظوا فينزجروا[1] ﴿فظلتم تفكَّهون﴾ أي فظللتم وبقيتم تتفجعون وتحزنون على الزرع مما حلَّ به وتقولون ﴿إنا لمُغرمون﴾ أي إنا لمحمَّلون الغرم[2] في إنفاقنا حيث ذهب زرعنا وغرمنا الحبَّ الذي بذرناه ﴿بل نحنُ محرومون﴾ أي بل نحن محرومون الرزق ، غرمنا قيمة البذر ، وحُرمنا خروج الزرع ﴿أفرأيتمْ الماءَ الذي تشربون﴾ أي أخبروني عن الماء الذي تشربونه عذباً فراتاً لتدفعوا عنكم شدة العطش ﴿أأنتم أنزلتموه من المُزن أم نحن المنزلون﴾ أي هل أنتم الذين أنزلتموه من السحاب أم نحن المنزلون له بقدرتنا ؟ قال الخازن : ذكَّرهم تعالى نعمته عليهم بإنزال المطر الذي لا يقدر عليه إلا اللهُ عز وجل[3] ﴿لو نشاء جعلناه أُجاجاً﴾ أي لو شئنا لجعلناه ماءً مالحاً شديد الملوحة لا يصلح لشرب ولا لزرع قال ابن عباس : ﴿أجاجاً﴾ شديد الملوحة وقال الحسن : مُرّاً زُعافاً لا يمكن شربه ﴿فلولا تشكُرون﴾ أي فهلاّ تشكرون ربكم على نعمه الجليلة عليكم ؟ ! وفي الحديث أن النبي ﷺ كان إذا شرب الماء قال « الحمد لله الذي سقانا عذباً فُراتاً برحمته ، ولم يجعله ملحاً أُجاجاً بذنوبنا »[4] ﴿أفرأيتم النَّار التي تُورون﴾ أي أخبروني عن النار التي تقدحونها وتستخرجونها من الشجر الرطب ﴿أأنتم أنشأْتم شجَرتها أم نحنُ المُنْشئون﴾ أي هل أنتم الذين خلقتم شجرها أم نحن الخالقون المخترعون ؟ قال ابن كثير : وللعرب شجرتان : إحداهما المرخُ ، والأخرى العفَار ، إذا أُخذ منهما غصنان أخضران ، فحُك أحدهما بالآخر تناثر من بينهما شرر النار[5] ، وقيل : أراد جميع الشجر الذي توقد منه النار ، لما روي عن ابن عباس أنه قال : ما من شجرة ولا عود إلا وفيه النار سوى العُنّاب[6] ﴿نحن جعلناها

---

(١) تفسير القرطبي ١٧/٢١٨ . (٢) قال الضحاك « مغرمون » من الغرم ، والمغرم الذي ذهب ماله بغير عوض ، وقال ابن عباس : معذبون والغرام العذاب . (٣) تفسير الخازن ٤/٢٣ . (٤) أخرجه ابن أبي حاتم .
(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤٣٨ . (٦) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/١٦٦ .

﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ * فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾

تذكـرةً﴾ أي جعلنا نار الدنيا تذكيراً للنار الكبرى « نار جهنم » إذا رآها الرائي ذكر بها نار جهنم ، فيخشى اللهَ ويخاف عقابه وفي الحديث (ناركم هذه التي توقدون جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم ، فقالوا يا رسول الله : إنْ كانت لكافية !! فقال : والذي نفسي بيده لقد فضّلت عليها بتسعة وتسعين جزءاً ، كلهن مثل حرها)[1] ﴿ومتاعـاً للمقـويـن﴾ أي ومنفعـةً للمسافـرين قال ابـن عبـاس : ﴿المقـوين﴾ المسافرين ، وقال مجاهد : للحاضر والمسافر ، المستمتعين بالنار من الناس أجمعين[2] قال الخازن : والمقوي النازلُ في الأرض القواء ـ وهي الأرض الخالية البعيدة عن العمران ـ والمعنى أنه ينتفع بها أهل البوادي والسُفَّـار ، فإن منفعتهم أكثر من المقيم ، فإنهم يوقدون النار بالليل لتهرب السباع ويهتدي بها الضال إلى غير ذلك من المنافع وهو قول أكثـر المفسرين[3] . . ولما ذكر دلائـل القـدرة والوحـدانية في الإنسـان ، والنبات ، والماء ، والنار ، أمر رسوله بتسبيح الله الواحد القهار فقال ﴿فسبِّـح باسـم ربِّـك العظيـم﴾ أي فنزِّه يا محمد ربك عما أضافه إليه المشركون من صفات العجز والنقص وقل : سبحان من خلق هذه الأشياء بقدرته ، وسخَّرها لنا بحكمته ، سبحانه ما أعظم شأنه ، وأكبر سلطانه !! عدَّد سبحانه وتعالى نعمه على عباده ، فبدأ بذكر خلق الإنسان فقال ﴿أفرأيتم ما تُمْنـون﴾ ثم بما به قوامه ومعيشته وهو الزرع فقال ﴿أفرأيتـم ما تحرثـون﴾ ثم بما به حياته وبقاؤُه وهو الماء فقال ﴿أفرأيتـم الماء الـذي تشربون﴾ ثم بما يصنع به طعامه ، ويصلح به اللحوم والخضار وهو النار فقال ﴿أفرأيتـم النار التي تورون﴾ فيا له من إله كريم ، ومنعمٍ عظيم !! ثم شرع بالقسم على جلال القرآن ورفعته ، وعلو شأنه ومنزلته ، وأنه تنزيل العزيز الحكيم فقال ﴿فــلا أقسـم بمواقـع النجـوم﴾ اللام لتأكيد الكلام وتقويته ، وزيادة « لا » كثير في كلام العرب ومشهور قال الشاعر :

تـذكرتُ ليلى فاعتـرتني صبابةٌ وكـادَ نياطُ القلـب لا يتقطَّـع

أي كاد يتقطع قال القرطبي : « لا » صلة في قول أكثر المفسرين والمعنى « فأقسم » بدليل قوله بعده ﴿وإنه لقسمٌ﴾[4] أي فأقسم بمنازل النجوم وأماكن دورانها في أفلاكهـا وبروجهـا ﴿وإنَّـه لقسـمٌ لو تعلمـون عظيـم﴾ أي وإن هذا القسم العظيم جليل ، لو عرفتم عظمته لآمنتم وانتفعتم به[5] ، لما في المقسم به من الدلالة على عظيم القدرة ، وكمال الحكمة ، وفرط الرحمة ، ومن مقتضيات رحمته تعالى أن لا يترك عباده سُدى ﴿إنـه لقرآنٌ كريـمٌ﴾ هذا هو المقسم عليه ، والمعنى أقسم بمواقع النجوم إن هذا القـرآن قرآن

---

(١) أخرجه الشيخان ومالك . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤٣٨ . (٣) تفسير الخازن ٤/٢٤ .

(٤) تفسير القرطبي ١٧/٢٢٣ وانظر تفصيل الأقوال وأرجحها في كتابنا « تفسير آيات الأحكام » الجزء الثاني ص ٥٠٥ . (٥) لم يكن المخاطبون يعلمون عن مواقع النجوم إلا القليل ، أما في هذا العصر فقد ظهرت معجزة القرآن يقول الفلكيون : إن مجموعة واحدة من المجموعات التي لا تحصى في الفضاء الهائل ، الذي لا نعرف له حدوداً ، مجموعة واحدة هي « المجرة » التي تنتسب إليها أسرتنا الشمسية

﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝٨٠ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝٨١ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝٨٤ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٨٧﴾

كريم ، ليس بسحرٍ ولا كهانة وليس بمفترى ، بل هو قرآن كريم مجيد ، جعله الله معجزة لنبيه محمدﷺ وهو كثير المنافع والخيرات والبركات ﴿في كتــابٍ مكنـونٍ﴾ أي في كتاب مصونٍ عند الله تعالى ، محفوظ عن الباطل وعن التبديل والتغيير قال ابن عباس : هو اللوح المحفوظ ، وقال مجاهد : هو المصحف الذي بأيدينا[1] ﴿لا يمسُّــه إلاّ المطهَّــرون﴾ أي لا يمس ذلك الكتاب المكنون إلا المطهرون ، وهم الملائكة الموصوفون بالطهارة من الشرك والذنوب والأحداث ، أو لا يمسُّه إلا من كان متوضئاً طاهراً قال القرطبي المراد بالكتاب المصحف الذي بأيدينا وهو الأظهر لقول ابن عمر « لا تمسَّ القرآن إلا وأنت طاهر » ولكتاب رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم « وألاَّ يمسَّ القرآن إلا طاهر »[2] ﴿تنزيـلٌ من ربِّ العالميـن﴾ أي منزَّل من عند الله جل وعلا .. ثم لمَّا عظم أمر القرآن ومجَّد شأنه وبخ الكفار فقال ﴿أفبهـذا الحديـث أنتم مُدهنـون﴾ أي أفبهذا القرآن يا معشر الكفار تكذبون وتكفرون ؟ ﴿وتجعلون رزقكـم أنكـم تُكذبـون﴾ أي وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون برازقكم ، وهو المنعم المتفضل عليكم ؟ ﴿فلـولا إذا بلغـت الحُلقـوم﴾ أي فهلاَّ إذا بلغت الروح الحلقوم عند معالجة سكرات الموت ﴿وأنتـم حينئـذٍ تنظـرون﴾ أي وأنتم في ذلك الوقت تنظـرون إلى المحتضر وما يكابده من شدائد وأهوال ﴿ونحـن أقـربُ إليـه منكـم ولكـنْ لا تُبصـرون﴾ أي ونحن بعلمنا واطلاعنا أقرب إلى الميت منكم ولكنْ لا تعلمون ذلك ، ولا تبصرون ملائكتنا الـذين حضروه لقبض روحه قال ابن كثير : ومعنى الآية ملائكتنا أقرب إليه منكم ولكن لا ترونهم كما قال تعالى ﴿حتى إذا جاء أحدهـم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾[3] ﴿فلـولا إن كنتـم غيـر مدينيـن﴾ أي فهلاَّ إن كنتم غير مجزيين بأعمالكم كما تزعمون ﴿ترجعونهـا إن كنتـم صادقيـن﴾ أي تردون نفس هذا الميت إلى جسده بعد ما بلغت الحلقوم قال ابن عباس : ﴿غيـر مدينيـن﴾ أي غير محاسبين ولا مجزيين قال الخازن : أجاب عن قوله ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم﴾ وعن قوله ﴿فلولا إن كنتم غير مدينين﴾ بجوابٍ واحد وهو قوله ﴿ترجعونها إن كنتم صادقين﴾ ومعنى الآية : إن كان الأمر كما تقولون أنه لا بعث ولا حساب ، ولا

تبلغ ألف مليون نجم ، وإن من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة « بلايين » نجم منها ما يمكن رؤيته بالعين المجردة ، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة ، هذه كلها تسبح في الفلك الغامض ، ولا يوجد أي احتمال أن يقترب نجم من مجال نجم آخر ، أو يصطدم بكوكب آخر ، إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض بآخر في المحيط الهادي ، يسيران باتجاه واحد وبسرعة واحدة وهو احتمال بعيد جداً إن لم يكن مستحيلاً ، نقلاً عن كتاب « الله والعلم الحديث ص ٣٣ » .

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٢٥ . (٢) نفس المصدر والصفحة . (٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٤٠ .

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٩٦﴾

إله يجازي ، فهلاّ تردون نفس من يعزُّ عليكم إذا بلغت الحلقوم ؟ وإذا لم يمكنكم ذلك فاعلموا أن الأمر إلى غيركم وهو الله تعالى فآمنوا به[1] . . ثم ذكر تعالى طبقات الناس عند الموت وعند البعث ، وبيَّن درجاتهم في الآخرة فقال ﴿فأمَّا إنْ كان من المقربين * فروحٌ وريحان وجنَّة نعيم﴾ أي فأما إن كان هذا الميت من المحسنين السابقين بالدرجات العلا ، فله عند ربه استراحة ورزق حسن وجنة واسعة يتنعم فيها قال القرطبي : والمراد بالمقربين السابقون المذكورون في أول السورة[2] ﴿وأما إنْ كانَ من أصحاب اليمين﴾ أي وأما إن كان المحتضر من السعداء أهل الجنة الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم ﴿فسلامٌ لكَ من أصحاب اليمين﴾ أي فسلامٌ لك يا محمد منهم ، لأنهم في راحةٍ وسعادة ونعيم ﴿وأمَّا إن كان من المكذبين الضالين﴾ أي وأما إن كان المحتضر من المنكرين للبعث ، الضالين عن الهدى والحق ﴿فنُزُلٌ من حميم﴾ أي فضيافتهم التي يُكرمون بها أول قدومهم ، الحميمُ الذي يصهر البطون لشدة حرارته قال في التسهيل : النُزل أول شيءٍ يُقدم للضيف[3] ﴿وتصليةُ جحيم﴾ أي ولهم إصلاءٌ بنار جهنم وإذاقة لهم من حرها ﴿إنَّ هذا لهُو حقُّ اليقين﴾ أي إن هذا الذي قصصناه عليك يا محمد من جزاء السابقين ، والسعداء ، والأشقياء لهو الحقُّ الثابت الذي لا شك فيه ولا ريب ، وهو عين اليقين الذي لا يمكن إنكاره ﴿فسبِّحْ باسمِ ربِّك العظيم﴾ أي فنزِّه ربك عن النقص والسوء ، وعمَّا يصفه به الظالمون ، لما نزلت هذه الآية الكريمة قال النبي ﷺ : (اجعلوها في ركوعكم ، ولما نزلت ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ قال ﷺ : اجعلوها في سجودكم)[4] .

البَلاَغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ جناس الاشتقاق ﴿إذا وقعت الواقعة﴾ والجناس الناقص في قوله ﴿روح وريحان﴾ .

٢ ـ الطباق بين ﴿الميمنة . . والمشأمة﴾ وبين ﴿الأولين . . والآخرين﴾ وبين ﴿خافضة . . رافعة﴾ وفي إسناد الخفض والرفع إلى القيامة مجاز عقلي ، لأن الخافض والرافع على الحقيقة هو الله وحده ، يرفع أولياءه ويخفض أعداءه ، ونسب إلى القيامة مجازاً كقولهم « نهاره صائم » .

٣ ـ التشبيه المرسل المجمل ﴿وحور عينٌ كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ أي كأمثال اللؤلؤ في بياضه

(١) تفسير الخازن ٤/ ٢٧ . (٢) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٣٢ .
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٩٤ (٤) أخرجه أبو داود وابن ماجه وصححه الحاكم .

وصفائه ، حذف منه وجه الشبه فهو مرسل مجمل .

٤ ـ التفخيم والتعظيم ﴿وأصحاب اليمين ما أصحابُ اليمين﴾ كرره بطريق الاستفهام تفخياً .

٥ ـ التفنن بذكر أصحاب الميمنة ثم بذكر أصحاب اليمين ، وكذلك بذكر المشئمة وذكر أصحاب الشمال ﴿وأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة﴾ ﴿وأصحاب اليمين ما أصحابُ اليمين﴾ .

٦ ـ تأكيد المدح بما يشبه الذم ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً﴾ لأن السلام ليس من جنس اللغو والتأثيم ، فهو مدح لهم بإفشاء السلام ، وهذا كقول القائل « لا ذنب لي إلا محبتُك » .

٧ ـ التهكم والاستهزاء ﴿هذا نزلهم يوم الدين﴾ أي هذا العذاب أول ضيافتهم يوم القيامة ففيه سخرية وتهكم بهم لأن النزل هو أول ما يقدم للضيف من الكرامة .

٨ ـ الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿ثم إنكم أيها الضالون المكذبون﴾ ـ ثم قال بعد ذلك ملتفتاً عن خطابهم ﴿هذا نزلهم يوم الدين﴾ وذلك للتحقير من شأنهم ، والأصل هذا نزلكم .

٩ ـ الجملة الاعتراضية وفائدتها لفت الأنظار إلى أهمية القسم ﴿وإنه لقسمٌ ـ لو تعلمون ـ عظيم﴾ جاءت الجملة الاعتراضية ﴿لو تعلمون﴾ بين الصفة والموصوف للتهويل من شأن القسم .

١٠ ـ توافق الفواصل في الحرف الأخير مما يزيد في رونق الكلام وجماله مثل ﴿في سدرٍ مخضود * وطلحٍ منضود * وظلٍ ممدود﴾ ومثل ﴿فشاربون عليه من الحميم * فشاربون شرب الهيم﴾ ويسمى هذا بالسجع المرصَّع وهو من المحسنات البديعية .

لطيفة : المناسبة بين المقسم به وهو النجوم وبين المقسم عليه وهو القرآن ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم * إنه لقرآن كريم﴾ أن النجوم جعلها الله ليهتدي بها الناس في ظلمات البر والبحر ، وآيات القرآن يُهتدى بها في ظلمات الجهل والضلالة ، وتلك ظلمات حسية ، وهذه ظلمات معنوية ، فالقسم هنا جاء جامعاً بين الهدايتين : الحسية للنجوم ، والمعنوية للقرآن ، فهذا وجه المناسبة والله أعلم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الواقعة »

* * *



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* هذه السورة الكريمة من السور المدنية ، التي تعنى بالتشريع والتربية والتوجيه ، وتبني المجتمع الإسلامي على أساس العقيدة الصافية ، والخلق الكريم ، والتشريع الحكيم .

* وقد تناولت السورة الكريمة « سورة الحديد » ثلاثة مواضيع رئيسية وهي :

أولاً : أن الكون كله لله جل وعلا ، هو خالقه ومبدعه ، والمتصرف فيه بما يشاء .

ثانياً : وجوب التضحية بالنفس والنفيس لإعزاز دين الله ، ورفع منار الإسلام .

ثالثاً : تصوير حقيقة الدنيا بما فيها من بهرج ومتاعٍ خادع حتى لا يغتربها الإنسان .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن عظمة الخالق جلَّ وعلا الذي سبَّح له كل ما في الكون من شجرٍ وحجر ، ومدر ، وإنسانٍ ، وحيوان ، وجماد ، فالكل ناطق بعظمته شاهد بوحدانيته .

* ثم ذكرت صفات الله الحسنى ، وأسماءه العليا ، فهو الأول بلا بداية ، والآخر بلا نهاية ، والظاهر بآثار مخلوقاته ، والباطن الذي لا يعرف كنه حقيقته أحد ، وهو الخالق للإنسان والمدبر للأكوان .

* ثم تلتها الآيات وهي تدعو المسلمين إلى البذل والسخاء والإنفاق في سبيل الله بما يحقق عزة الإسلام ورفعة شأنه ، فلا بدَّ للمؤمن من الجهاد بالنفس والمال لينال السعادة في الدنيا والمثوبة في الآخرة .

* وتحدثت السورة عن أهل الإيمان ، وأهل النفاق ، فالمؤمنون يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، والمنافقون يتخبطون في الظلمات ، كما كانوا في الدنيا يعيشون كالبهائم في ظلمات الجهل والغي والضلال .

* وتحدثت السورة عن حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة ، وصورتهما أدقَّ تصوير ، فالدنيا دار الفناء ، فهي زائلة فانية ، كمثل الزرع الخصيب الذي ينبت بقوة بنزول الغيث ، ثم يصفر ويذبل حتى يصير

هشيماً وحطاماً تذروه الرياح ، بينما الآخرة دار الخلود والبقاء ، التي لا نصب فيها ولا تعب ، ولا همٌّ ولا شقاء .

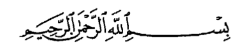
* وختمت السورة الكريمة بالغاية من بعثة الرسل الكرام ، والأمر بتقوى الله عز وجل ، والاقتداء بهدي رسله وأنبيائه .

التسمية : سميت السورة « سورة الحديد » لذكر الحديد فيها ، وهو قوة الإنسان في السلم والحرب ، وعدته في البنيان والعمران ، فمن الحديد تبنى الجسور الضخمة ، وتشاد العمائر ، وتصنع الدروع والسيوف والرماح ، وتكون الدبابات والغواصات والمدافع الثقيلة إلى غير ما هنالك من منافع .

* * *

قال الله تعالى :﴿سبَّح للهِ ما في السموات والأرض . .إلى . . هي مولاكم وبئس المصير﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (١٥) .

اللغة : ﴿سبَّح﴾ نزَّه الله ومجَّده وقدَّسه ﴿العزيز﴾ القوي الغالب على كل شيء ﴿الأول﴾ السابق على جميع الموجودات ﴿الآخر﴾ الباقي بعد فنائها ﴿يلج﴾ يدخل ﴿يعرج﴾ يصعد ﴿الظاهر﴾ بوجوده ومصنوعاته وآثاره ﴿الباطن﴾ بكنه ذاته عن إدراك الأبصار له ﴿الحُسنى﴾ المثوبة الحسنة والمراد بها الجنة ﴿انظرونا﴾ انتظرونا ﴿نقتبس﴾ نستضيء ونهتدي بنوركم ﴿سور﴾ حاجز بين الجنة والنار ﴿الغَرور﴾ الشيطان وكل من خدع غيره فهو غار وغرور .



سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾

التفسير : ﴿سبَّح للَّهِ ما في السَّموات والأرض﴾ أي مجَّد اللهَ ونزَّهه عن السوء كلُّ ما في الكون من إنسانٍ ، وحيوانٍ ، ونباتٍ قال الصاوي : والتسبيحُ تنزيهُ المولى عن كل ما لا يليق به قولاً ، وفعلاً ، واعتقاداً ، من سبح في الأرض والماءِ إذا ذهب وأبعد فيهما ، وتسبيحُ العقلاء بلسان المقال ، وتسبيح الجماد بلسان الحال أي أن ذاتها دالة على تنزيه صانعها عن كل نقص ، وقيل بلسان المقال أيضاً ﴿ولكنْ لا تفقهون تسبيحهم﴾[1] وقال الخازن : تسبيحُ العقلاء تنزيهُ الله عز وجل عن كل سوء ، وعما لا يليق بجلاله ، وتسبيحُ غير العقلاء من ناطقٍ وجماد اختلفوا فيه ، فقيل : تسبيحه دلالته على صانعه ، فكأنه ناطق بتسبيحه ، وقيل : تسبيحه بالقول ويدل عليه قوله تعالى ﴿وإن من شيءٍ إلاّ يُسبح بحمده ولكنْ لا تفقهون تسبيحهُم﴾ أي قولهم ، والحقُّ أن التسبيح هو القولُ الذي لا يصدر إلا من العاقل العارف بالله تعالى ، وما سوى العاقل ففي تسبيحه وجهان: **أحدهما** : أنها تدل على تعظيمه وتنزيهه **والثاني**:

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ١٦٨ .

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ﴾

أن جميع الموجودات بأسرها منقادةٌ له يتصرف فيها كيف يشاء ، فإن حملنا التسبيح على القول كان المراد بقوله ﴿سبح لله ما في السموات والأرض﴾ الملائكةُ والمؤمنون العارفون بالله ، وإن حملنا التسبيح على التسبيح المعنوي ، فجميع أجزاء السموات وما فيها من شمس ، وقمر ، ونجوم وغير ذلك وجميع ذرات الأرضين وما فيها من جبالٍ ، وبحار ، وشجر ، ودواب وغير ذلك كلها مسبحة خاشعة خاضعة لجلال عظمة الله ، منقادةٌ له يتصرف فيها كيف يشاء ، فإن قيل : قد جاء في بعض فواتح السور ﴿سبَّح لله﴾ بلفظ الماضي ، وفي بعضها ﴿يسبح لله﴾ بلفظ المضارع فما المراد ؟ قلت : فيه إشارة إلى كون جميع الأشياء مسبحاً لله أبداً ، غير مختص بوقتٍ دون وقت ، بل هي كانت مسبحة أبداً في الماضي ، وستكون مسبحة أبداً في المستقبل[1] ﴿وهو العزيزُ الحكيمُ﴾ أي وهو الغالب على أمره الذي لا يمانعه ولا ينازعه شيء ، الحكيمُ في أفعاله الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة . . ثم ذكر تعالى عظمته وقدرته فقال ﴿له مُلْكُ السمواتِ والأرضِ يحيي ويُميت﴾ أي هو جل وعلا المالك المتصرف في خلقه ، يحيي من يشاء ، ويُميت من يشاء قال القرطبي : يميتُ الأحياء في الدنيا ، ويحيي الأموات للبعث والنشور[2] ﴿وهوَ على كل شيءٍ قدير﴾ أي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، ولفظُ ﴿قدير﴾ مبالغة في القادر لأن « فعيل » من صيغ المبالغة ﴿هو الأولُ والآخرُ﴾ أي ليس لوجوده بداية ، ولا لبقائه نهاية ﴿والظاهرُ والباطنُ﴾ أي الظاهرُ للعقول بالأدلة والبراهين الدالة على وجوده ، الباطنُ الذي لا تدركه الأبصار ، ولا تصلُ العقولُ إلى معرفة كنه ذاته[3] وفي الحديث (أنت الأولُ فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء)[4] قال شيخ زاده : وقد فسَّر صاحب الكشاف « الباطن » بأنه غير المدرك بالحواسِ وهو تفسير بحسب التشهي يؤيد مذهبه من استحالة رؤية الله في الآخرة ، والحقُّ أنه تعالى ظاهرٌ بوجوده ، باطنٌ بكنهه ، وأنه تعالى جامعٌ بين الوصفين أزلاً وأبداً[5] ﴿وهو بكل شيءٍ عليمٌ﴾ أي هو تعالى عالمٌ بكل ذرةٍ في الكون ، لا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿هو الذي خلقَ السَّموات والأرض في ستة أيام﴾ أي خلقهما في مقدار ستة أيام ولو شاء لخلقهما بلمح البصر ، وهو تحقيقٌ لعزته ، وكمال قدرته ، كما أن قوله ﴿يعلم ما يلج في الأرض﴾ تحقيق لحكمته ، وكمال علمه ﴿ثُمَّ استوى على العرش﴾ استواءً يليق بجلاله من غير تمثيلٍ ولا تكييفٍ[6] ﴿يعلمُ ما يلجُ في الأرض وما يخرُجُ منها﴾ أي يعلم ما يدخل في

(١) تفسير الخازن ٤/ ٢٩ . (٢) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٣٦ . (٣) هذا أرجح الأقوال في تفسير « الظاهر والباطن » وقد اختاره أبو السعود والألوسي . (٤) هذا جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم وأحمد . (٥) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٤٨ . (٦) انظر تفصيل معنى الاستواء في سورة الأعراف .

﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾

الأرض من مطر وأموات ، وما يخرج منها من معادن ونبات وغير ذلك ﴿وما ينزلُ من السَّماء وما يعرج فيها﴾ أي وما ينزل من السماء من الأرزاق ، والملائكة ، والرحمة ، والعذاب ، وما يصعد فيها من الملائكة والأعمال الصالحة كقوله ﴿إليه يصعد الكلِمُ الطيب﴾ ﴿وهو معكم أين ما كنتم﴾ أي هو جل وعلا حاضرٌ مع كل أحدٍ بعلمه وإحاطته قال ابن عباس : هو عالمٌ بكم أينما كنتم قال ابن كثير : أي هو رقيبٌ عليكم ، شهيدٌ على أعمالكم ، حيث كنتم وأين كنتم ، من برٍّ وبحر ، في ليلٍ أو نهار ، في البيوت أو القفار ، الجميع في علمه على السواء ، يسمع كلامكم ويرى مكانكم ، ويعلم سرَّكم ونجواكم[1] ﴿والله بما تعملون بصيرٌ﴾ أي رقيب على أعمال العباد ، مطلع على كل صغيرة وكبيرة ﴿له مُلكُ السَّموات والأرض﴾ كرره للتأكيد والتمهيد لإثبات الحشر والنشر أي هو المعبود على الحقيقة ، المتصرف في الخلق كيف يشاء ﴿وإلى اللهِ تُرجعُ الأمُورُ﴾ أي إليه وحده مرجع أمور الخلائق في الآخرة فيجازيهم على أعمالهم ﴿يُولجُ الليلَ في النَّهار ويُولجُ النَّهار في اللَّيل﴾ أي هو المتصرف في الكون كيف يشاء ، يقلِّب الليل والنهار بحكمته وتقديره ، ويدخل كلاً منهما في الآخر ، فتارة يطول الليل ويقصر النهار ، وأخرى بالعكس ﴿وهو عليمٌ بذات الصدور﴾ أي هو العالم بالسرائر والضمائر ، وما فيها من النوايا والخفايا ، ومن كانت هذه صفته فلا يجوز أن يُعبد سواه . . ثم لما ذكر دلائل عظمته وقدرته ، أمر بتوحيده وطاعته فقال ﴿آمِنوا باللَّه ورسُوله﴾ أي صدِّقوا بأن الله واحد وأن محمداً عبده ورسوله ﴿وأنفقوا ممَّا جعلكم مُستخلفين فيه﴾ أي وتصدَّقوا من الأموال التي جعلكم الله خلفاء في التصرف فيها ، فهي في الحقيقة لله لا لكم قال في التسهيل : يعني أن الأموال التي بأيديكم إنما هي أموال الله لأنه خلقها ، ولكنه متَّعكم بها وجعلكم خلفاء بالتصرف فيها ، فأنتم فيها بمنزلة الوكلاء فلا تمنعوها من الإنفاق فيما أمركم مالكها أن تنفقوها فيه[2] ، والمقصود التحريضُ على الإنفاق والتزهيد في الدنيا ولهذا قال بعده ﴿فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجرٌ كبيرٌ﴾ أي فالذين جمعوا بين الإيمان الصادق

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٤٤٥/٣ ، قال في التسهيل : حمل قوم الاستواء على ظاهره ، وتأوله قوم بمعنى قصد كقوله ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ ولو كان كذلك لقال : ثم استوى إلى العرش ، وتأولها آخرون أنها بمعنى استولى بالمُلك والقدرة . والحق الإيمان به من غير تكييف ، فإن السلامة في التسليم ولله درُّ مالك حين سأله رجل عن ذلك فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عن هذا بدعة ، وقد رُوي مثل قوم مالك عن « أبي حنيفة » و« جعفر الصادق » و« الحسن البصري » ولم يتكلم الصحابة ولا التابعون في معنى الاستواء ، بل أمسكوا عنه ، ولذلك قال مالك : السؤال عنه بدعة . انتهى التسهيل في علوم التنزيل ٤٣/٣ ، وانظر ما كتبناه في القسم الرابع ، صفحة ٢١ ، بغية الايضاح والبيان .

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٩٥ وقيل المعنى : مما جعلكم خلفاء عمن كان قبلكم فيما كان بأيديهم فانتقل لكم بالإرث وسيخلفكم فيه من بعدكم ، والأول أظهر .

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ﴾

والإنفاق في سبيل الله ابتغاء وجهه الكريم لهم أجر عظيم وهو الجنة قال أبو السعود : وفي الآية من المبالغات ما لا يخفى ، حيث جعل الجملة اسمية ﴿فالذين آمنوا﴾ وأعيد ذكرُ الإيمان والإنفاق ﴿آمنوا وأنفقوا﴾ وكرر الإسناد ﴿لهم﴾ وفخّم الأجر بالتنكير ووصفه بالكبير ﴿لهم أجرٌ كبير﴾ ﴿وما لكم لا تؤمنون باللّهِ﴾ استفهام للإنكار والتوبيخ أي أيُّ عذرٍ لكم في ترك الإيمان بالله ؟ ﴿والرَّسُولُ يدعُوكم لِتُؤمِنوا بربكم﴾ أي والحالُ أن الرسول ﷺ يدعوكم للإيمان بربكم وخالقكم ، بالبراهين القاطعة ، والحجج الدامغة ﴿وقد أخذ ميثاقكم﴾ أي وقد أخذ الله ميثاقكم ـ وهو العهد المؤكد ـ بما ركز في العقول من الأدلة الدالة على وجود الله قال أبو السعود : وذلك بنصب الأدلة والتمكين من النظر[1] وقال الخازن : أخذ ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر آدم وأعلمكم بأن الله ربكم لا إله لكم سواه ، وقيل : أخذ ميثاقكم حيث ركب فيكم العقول ، ونصب لكم الأدلة والبراهين والحجج التي تدعو إلى متابعة الرسول[2] ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ شرطٌ حذف جوابه أي إن كنتم مؤمنين في وقت من الأوقات فالآن أحرى الأوقات لقيام الحجج والبراهين عليكم . . ثم ذكر تعالى بعض الأدلة الدالة على وجوب الإيمان فقال ﴿هو الذي يُنزِّل على عبدِهِ آياتٍ بيناتٍ﴾ أي هو تعالى الذي ينزّل على محمد القرآن العظيم ، المعجز في بيانه ، الواضح في أحكامه قال القرطبي : يريد بالآيات البينات القرآن وقيل : المعجزات أي لزمكم الإيمان بمحمد ﷺ لما معه من المعجزات ، والقرآنُ أكبرها وأعظمها[3] ﴿ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ أي ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ﴿وإنَّ اللّهَ بكم لرءوفٌ رحيم﴾ أي مبالغ في الرأفة والرحمة بكم ، حيث أنزل الكتب وأرسل الرسل لهدايتكم ، ولم يقتصر على ما نصب لكم من الحجج العقلية ﴿وما لكم ألاَّ تُنفقوا في سبيل اللّهِ وللّهِ ميراثُ السَّموات والأرض﴾ ؟ أيْ أيُّ شيءٍ يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله ، وفيما يقربكم من ربكم ، وأنتم تموتون وتخلّفون أموالكم وهي صائرة إلى الله تعالى ؟ قال الإمام الفخر : المعنى إنكم ستموتون فتورثون ، فهلاَّ قدمتموه في الإنفاق في طاعة الله[4] !! وهذا من أبلغ الحث على الإنفاق في سبيل الله ﴿لا يستوي منكم منْ أنْفقَ من قبل الفتح وقاتل﴾ أي لا يستوي في الفضل منْ أنفق ماله وقاتل الأعداء مع رسول الله قبل فتح مكة ، مع من أنفق ماله وقاتل بعد فتح مكة قال المفسرون : وإنما كانت النفقة قبل الفتح أعظم ، لأن حاجة الإسلام إلى الجهاد والإنفاق كانت أشد ، ثم أعز الله الإسلام بعد الفتح وكثُر

(١) تفسير أبي السعود ٥/١٣٧ . (٢) تفسير الخازن ٤/ ٣١ .
(٣) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٣٩ . (٤) التفسير الكبير ٢٩/ ٢١٨ .

﴿أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾

ناصريه ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ﴿أولئك أعظمُ درجةً من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا﴾ أي أعظم أجراً ، وأرفع منزلة من الذين أنفقوا من بعد فتح مكة وقاتلوا لإعلاء كلمة الله قال الكلبي : نزلت في « أبي بكر » لأنه أول من أسلم ، وأول من أنفق ماله في سبيل الله ، وذبَّ عن رسول الله ﷺ[1] ﴿وكلاً وعدَ اللّهُ الحُسنى﴾ أي وكلاً ممن آمن وأنفق قبل الفتح ، ومن آمن وأنفق بعد الفتح ، وعده الله الجنة مع تفاوت الدرجات ﴿واللهُ بما تعملون خبيرٌ﴾ أي عالمٌ بأعمالكم ، مطلع على خفاياكم ونواياكم ، ومجازيكم عليه ، وفي الآية وعدٌ ووعيد ﴿من ذا الذي يُقرض اللّه قرضاً حسناً﴾ أي من ذا الذي ينفق ماله في سبيل الله ابتغاء رضوانه ﴿فيُضاعفه له﴾ أي يعطيه أجره على إنفاقه مضاعفاً ﴿ولهُ أجرٌ كريمٌ﴾ أي وله مع المضاعفة ثواب عظيم كريم وهو الجنة قال ابن كثير : أي جزاء جميل ورزق باهر وهو الجنة ، ولما نزلت هذه الآية قال « أبو الدحداح الأنصاري » يا رسول الله : وإنَّ الله ليريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح ، قال : أرني يدك يا رسول الله ، فناوله يده ، قال : فإني قد أقرضت ربي حائطي - أي بستاني - وله فيه ستمائة نخلة ، وأم الدحداح فيه هي وعيالها ، فجاء أبو الدحداح فناداها : يا أم الدحداح قالت : لبيك ، قال اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل ، فقالت : ربح بيعك يا أبا الدحداح ونقلت منه متاعها وصبيانها[2] . . ثم أخبر تعالى عن المؤمنين الأبرار ، وما يتقدمهم من الأنوار وهم على الصراط فقال ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورُهُم بينَ أيديهم وبأيمانهم﴾ أي اذكر يوم ترى أنوار المؤمنين والمؤمنات تتلألأ من أمامهم ومن جميع جهاتهم ليستضيئوا بها على الصراط ، وتكون وجوههم مضيئة كإضاءة القمر في سواد الليل ﴿بُشراكم اليومَ جناتٌ تجري من تحتها الأنهارُ﴾ أي ويقال لهم : أبشروا اليوم بجنات الخلد والنعيم ، التي تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿ذلك هو الفوزُ العظيم﴾ أي الفوز الذي لا فوز بعده لأنه سبب السعادة الأبدية ، روي أن نور كل أحدٍ على قدر إيمانه ، وأنهم متفاوتون في النور ، فمنهم من يضيء نوره ما قرب من قدميه ، ومنهم من يُطفأ نوره مرة ويظهر مرة[1] قال الزمخشري : وإنما قال ﴿بين أيديهم وبأيمانهم﴾ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين ، كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ووراء ظهورهم[3] . . ولما شرح حال المؤمنين يوم القيامة ، أتبع ذلك بشرح حال

(١) تفسير الخازن ٣٢/٤ . (٢) تفسير ابن كثير المختصر ٤٤٨/٣ . (٣) تفسير الكشاف ٣٤٢/٤ .

يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ

المنافقين فقال ﴿يوم يقولُ المنافقون والمنافقاتُ للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم﴾ أي انتظرونا لنستضيء من نوركم قال المفسرون : إن الله تعالى يعطي المؤمنين نوراً يوم القيامة على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط ، ويترك الكافرين والمنافقين بلا نور ، فيستضيء المنافقون بنور المؤمنين ، فبينما هم يمشون إذ بعث الله فيهم ريحاً وظلمة ، فبقوا في الظلمة لا يبصرون مواضع أقدامهم فيقولون للمؤمنين : انتظرونا لنستضيء بنوركم ﴿قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً﴾ أي فيقول لهم المؤمنون سخريةً واستهزاءً بهم : ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا هذه الأنوار هناك قال أبو حيان : وقد علموا أن لا نور وراءهم ، وإنما هو إقناطٌ لهم[1] ﴿فضُرِب بينهم بسورٍ له بابٌ﴾ أي فضرب بين المؤمنين والمنافقين بحاجزٍ له باب ، يحجز بين أهل الجنة وأهل النار ﴿باطِنُهُ فيه الرحمة وظاهرهُ من قبلِه العذاب﴾ أي في باطن السور الذي هو جهة المؤمنين الرحمةُ وهي الجنة ، وفي ظاهره وهو جهة الكافرين العذاب وهو النارُ قال ابن كثير : هو سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين ، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه ، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب[2] ﴿يُنادونهُم ألمْ نكن معكم﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين : ألم نكن معكم في الدنيا ، نصلي كما تصلون ، ونصوم كما تصومون ، ونحضر الجمعة والجماعات ، ونقاتل معكم في الغزوات ؟ ﴿قالوا بلى ولكنَّكم فتنتم أنفسكم﴾ أي قال لهم المؤمنون : نعم كنتم معنا في الظاهر ولكنكم أهلكتم أنفسكم بالنفاق ﴿وتربَّصتم﴾ أي انتظرتم بالمؤمنين الدوائر ﴿وارْتبتم﴾ أي شككتم في أمر الدين ﴿وغرتكم الأماني﴾ أي خدعتكم الأماني الفارغة بسعة رحمة الله ﴿حتّى جاء أمرُ اللّهِ﴾ أي حتى جاءكم الموتُ ﴿وغرَّكم باللّهِ الغَرور﴾ أي وخدعكم الشيطان الماكر بقوله : إن الله عفو كريم لا يعذبكم قال قتادة : ما زالوا على خُدعةٍ من الشيطان حتى قذفهم الله في نار جهنم[3] قال المفسرون : الغرور بفتح الغين الشيطان لأنه يغر ويخدع الإنسان قال تعالى ﴿فلا تغرنكم الحياةُ الدنيا ولا يَغرنكم باللّه الغرور . إنَّ الشيطان لكم عدوٌ فاتخذوه عدواً﴾ ﴿فاليومَ لا يُؤخذ منكم فديةٌ ولا من الذين كفروا﴾ أي ففي هذا اليوم العصيب لا يقبل منكم بدلٌ ولا عوضٌ يا معشر المنافقين ، ولا من الكافرين الجاحدين بالله وآياته وفي الحديث (إن الله تعالى يقول للكافر : أرأيتك لو كان لك أضعاف الدنيا أكنت تفتدي بجميع ذلك من عذاب النار ؟ ! فيقول : نعم يا ربّ ، فيقول الله تبارك وتعالى : قد سألتك ما

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٢١ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٥٠ . (٣) تفسير الخازن ٤/ ٣٤ .

ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

هو أيسرُ من ذلك وأنت في ظهر أبيك آدم ، أن لا تشرك بي فأبيتَ إلا الشرك)[١] ﴿مأواكم النارُ﴾ أي مقامكم ومنزلكم نار جهنم ﴿هي مولاكم﴾ أي هي عونكم وسندكم وناصركم لا ناصر لكم غيرها، وهو تهكم بهم ﴿وبئس المصير﴾ أي وبئس المرجع والمنقلب نار جهنم .

قال بعض العلماء : « السعيد من لا يغتر بالطمع ولا يركن إلى الخدع ، ومن أطال الأمل نسي العمل ، وغفل عن الأجل »[٢]

* * *

قال الله تعالى : ﴿ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله. . إلى . .والله ذو الفضل العظيم﴾ من آية (١٦) إلى آية (٢٩) نهاية السورة .

المناسبة : لما ذكر تعالى اغترار المنافقين والكافرين بالحياة الدنيا ، نبَّه المؤمنين ألا يكونوا مثلهم ، أو مثل أهل الكتاب بالاغترار بدار الفناء ، ثم ضرب مثلاً للحياة الدنيا وبهرجها الخادع الكاذب ، وختم السورة الكريمة ببيان فضيلة التقوى والعمل الصالح ، وأرشد المؤمنين إلى مضاعفة الأجر والنور باتباعهم هدي الرسول ﷺ .

اللغة : ﴿يأن﴾ يحن يقال : أنى يأني مثل رمى يرمي أي حان ،قال الشاعر :

ألم يأنِ لي يا قلب أنْ أترك الجهلا ... وأن يُحدث الشيب المبينُ لنا عقلاً[٣] ؟

﴿تخشع﴾ تذل وتلين ﴿الأمد﴾ الأجل أو الزمان ﴿يهيج﴾ هاج الزرع إذا جف ويبس بعد خضرته ونضارته ﴿حطاماً﴾ فُتاتاً يتلاشى بالرياح ﴿قفينا﴾ ألحقنا وأتبعنا ﴿كفلين﴾ مثنى كفل وهو النصيب .

سبب النزول : لما قدم المؤمنون المدينة ، أصابوا من لين العيش ورفاهيته ، ففتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا ونزلت هذه الآية ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾ قال ابن مسعود : « ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنوات »[٤] .

* أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ

التفسير : ﴿ألم يأنِ للَّذين آمنوا أنْ تخشع قُلُوبهم لذكر اللّهِ﴾ أي أما حان للمؤمنين أن ترقَّ قلوبهم وتلين لمواعظ الله ؟ ﴿وما نزل من الحقِّ﴾ أي ولما نزل من آيات القرآن المبين ؟ ﴿ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتابَ من قبل﴾ أي ولا يكونوا كاليهود والنصارى الذين أعطاهم الله التوراة

(١) تفسير الألوسي ٢٧/١٧٨ والحديث في الصحاح . (٢) تفسير القرطبي ١٧/٢٤٧ .
(٣) تفسير القرطبي ١٧/٢٤٨ . (٤) أخرجه مسلم .

مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ

والإنجيل ﴿فطـال عليهـم الأمدُ فقسـتْ قلوبهم﴾ أي فطال عليهم الزمن الذي بينهم وبين أنبيائهم ، حتى صلبت قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة قال ابن عباس : ﴿قست قلوبهـم﴾ مالـوا إلى الـدنيا وأعرضوا عن مواعظ القرآن وقال أبو حيان : أي صلبت بحيث لا تنفعل للخير والطاعة[١] والغرض أن الله يحذّر المؤمنين أنْ يكونوا مع القرآن كاليهود والنصارى حين قست قلوبهـم لما طال عليهـم الزمـان ﴿وكثيـرٌ منهـم فاسقـون﴾ أي وكثير من أهل الكتاب خارجون عن طاعة الله ، رافضـون لتعـاليم دينهم ، من فرط قسوة القلب قال ابن كثير : نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى ، لما تطاول عليهم الزمن بدّلوا كتاب الله الّذي بأيديهـم ، ونبـذوه وراء ظهورهم ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون اللـه ، فعنـد ذلك قسـت قلوبهـم فلا يقبلـون موعظة ، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد[٢] ﴿إعْلمـوا أنَّ اللّـه يُحيـي الأرض بعـدَ موتهـا﴾ أي اعلمـوا يا معشر المؤمنين أن الله يحيي الأرض القاحلة المجدبة بالمطر، ويخرج منها النبات بعد يبسها، وهو تمثيل لإحياء القلوب القاسية بالذكر وتلاوة القرآن ، كما تحيا الأرض المجدبة بالغيث الهتان قال ابن عباس : يلين القلوب بعد قسوتها فيجعلها مخبتةً منيبة ، وكذلك يحيي القلوب الميتة بالعلـم والحكمـة[٣] قال في البحر : ويظهر أنه تمثيلٌ لتليين القلوب بعد قسوتها ، ولتأثير ذكر الله فيها ، فكما يؤثر الغيث في الأرض فتعود بعد إجدابها مخصبة ، كذلك تعود القلوب النافرة مقبلةً يظهر فيها أثر الخشوع والطاعات[٤] ﴿قـد بيَّنـا لكـم الآيـات﴾ أي وضحنا لكم الحجج والبراهين الدالة على كمال قدرتنا ووحدانيتنا ﴿لعلكـم تعقلـون﴾ أي لكي تعقلوا وتتدبروا ما أنزل الله في القرآن ﴿إنَّ المصَّدِّقيـن والمُصَّدِّقـات وأقرضوا الله قرْضـاً حسناً﴾ أي الذين تصدقوا بأموالهم على الفقراء ابتغاء وجه الله ، والذين أنفقوا في سبيل الله وفي وجوه البر والإحسان طيبة بها نفوسهم ﴿يُضاعـف لهـم ولهـم أجـرٌ كريـم﴾ أي يضاعف لهم ثوابهم بأن تكتب الحسنة بعشر أمثالها ، ولهـم فوق ذلك ثواب حسـن جزيل وهـو الجنـة قال المفسرون : أصـل ﴿المُصدِّقيـن﴾ المتصدقين أدغمت التاء في الصاد فصارت المصدّقين ، ومعنى القرض الحسن هو التصدق عن طيب النفس ، وخلوص النية للفقير ، فكأن الإنسان بإحسانه إلى الفقير قد أقرض اللهَ قرضاً يستحق عليه الوفاء في دار الجزاء ﴿والذيـن آمنـوا باللّه ورُسلـه﴾ أي صدَّقوا بوحدانية الله ووجوده ، وآمنوا برسله إيماناً راسخاً كاملاً ، لا يخالجه شك ولا ارتياب ﴿أولئِـك هُـم الصِّديقـون والشهداء عنـد ربهـم﴾ أي أولئك الموصوفون بالإيمان بالله ورسله ، هم الذين جمعوا أعلى المراتب فحـازوا درجـة الصـديقية

(١) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٢٣ . (٢) تفسير مختصر ابن كثير ٣/ ٤٥١ . (٣) تفسير الخازن ٤/ ٣٥ . (٤) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٢٣ .

رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ

والشهادة في سبيل الله قال مجاهد : كل من آمن بالله ورسله فهو صدِّيقٌ وشهيد[١] ﴿لهم أجرهم ونورهم﴾ أي لهم في الآخرة الثواب الجزيل ، والنور الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ أي والذين جحدوا بوحدانية الله وكذبوا بآياته أولئك هم المخلدون في دار الجحيم قال البيضاوي : فيه دليل على أن الخلود في النار مخصوص بالكفار ، من حيث أن الصيغة تشعر بالاختصاص ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾ والصحبة تدل على الملازمة[٢] . . ولما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين ، ذكر بعده ما يدل على حقارة الدنيا وكمال حال الآخرة فقال ﴿إعلموا أنما الحياةُ الدنيا لعِبٌ﴾ أي اعلموا يا معشر السامعين أن هذه الحياة الدنيا ما هي إلا لعبٌ يُتعب الناس فيها أنفسهم كإتعاب الصبيان أنفسهم باللعب ﴿ولهوٌ﴾ أي وشغل للإنسان يشغله عن الآخرة وطاعة الله ﴿وزينةٌ﴾ أي وزينة يتزين بها الجهلاء كالملابس الحسنة ، والمراكب البهية ، والمنازل الرفيعة ﴿وتفاخرٌ بينكم﴾ أي ومباهاة وافتخار بالأحساب والأنساب والمال والولد كما قال القائل :

أرى أهل القُصور إذا أُميتوا   بنوا فوق المقابر بالصخور
أبوا إلا مباهاةً وفخراً   على الفقراء حتى في القبور[٣]

﴿وتكاثرٌ في الأموال والأولاد﴾ أي مباهاة بكثرة الأموال والأولاد قال ابن عباس : يجمع المال من سخط الله ، ويتباهى به على أولياء الله ، ويصرفه في مساخط الله ، فهو ظلماتٌ بعضها فوق بعض[٤] ﴿كمثل غيثٍ أعجب الكُفَّار نباتُه﴾ أي كمثل مطرٍ غزير أصاب أرضاً ، فأعجب الزُرَّاع نباتُه الناشىء عنه ﴿ثم يهيجُ فتراهُ مُصْفَراً﴾ أي ثم ييبس بعد خضرته ونُضرته فتراه مصفر اللون بعد أن كان زاهياً ناضراً ﴿ثم يكون حُطاماً﴾ أي ثم يتحطم ويتكسر بعد يبسه وجفافه فيصبح هشيماً تذروه الرياح كذلك حال الدنيا قال القرطبي : والمراد بالكفار هنا الزُرَّاع لأنهم يغطون البذر ، ومعنى الآية أن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته بكثرة الأمطار ، ثم لا يلبث أن يصير هشيماً كأن لم يكن ، وإذا أعجب الزراع فهو في غاية الحسن[٥] ﴿وفي الآخرةِ عذابٌ شديد ومغفرةٌ من الله ورضوان﴾ أي والجزاء في الآخرة إما عذاب شديد للفجار ، وإما مغفرة من الله ورضوانٌ للأبرار ﴿وما

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٩/ ٢٣٢ . (٢) تفسير البيضاوي ٣/ ٤٥٣ .
(٣) كنت سمعت هذين البيتين من شيخنا الجليل فضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة عالم الشهباء أمدَّ الله في عمره . (٤) التفسير الكبير للرازي ٢٩/ ٢٣٣ . (٥) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٥٥ .

وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾

الحياةُ الدنيا إلا متاع الغرور﴾ أي وليست الحياة الدنيا في حقارتها وسرعة انقضائها إلا متاعٌ زائل ، ينخدع بها الغافل ، ويغتر بها الجاهل قال سعيد بن جبير : الدنيا متاع الغُرور إن ألهتك عن طلب الآخرة ، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله وطلب الآخرة ، فنعم المتاع ونعم الوسيلة[١] . . ولما حقَّر الدنيا وصغَّر أمرها ، وعظَّم الآخرة وفخَّم شأنها ، حثَّ على المسارعة إلى نيل مرضاة الله ، التي هي سبب للسعادة الأبدية في دار الخلود والجزاء فقال ﴿سابقوا إلى مغفرةٍ من ربكم﴾ أي تسابقوا أيها الناس وسارعوا بالأعمال الصالحة التي توجب المغفرة لكم من ربكم قال أبو حيان : وجاء التعبير بلفظ ﴿سابقوا﴾ كأنهم في ميدان سباق يجرون إلى غاية مسابقين إليها ، والمعنى سابقوا إلى سبب مغفرة وهو الايمان ، وعملُ الطاعات[٢] ﴿وجنةٍ عرضها كعرض السماء والأرض﴾ أي وسارعوا إلى جنةٍ واسعة فسيحة ، عرضها كعرض السموات السبع مع الأرض مجتمعة قال السدي : إن الله تعالى شبَّه عرض الجنة بعرض السموات السبع والأرضين السبع ، ولا شك أن طولها أزيد من عرضها ، فذكر العرض تنبيهاً على أن طولها أضعاف ذلك[٣] وقال البيضاوي : إذا كان العرض كذلك فما ظنك بالطول[٤] ، ﴿أُعدَّت للذينَ آمنوا باللهِ ورسلهِ﴾ أي هيأها الله وأعدها للمؤمنين المصدِّقين بالله ورسله قال المفسرون : وفي الآية دلالة على أن الجنة مخلوقة وموجودة لأن ما لم يُخلق بعد لا يوصف بأنه أُعدَّ وهُيِّءَ ﴿ذلكَ فضلُ اللهِ يُؤتيه من يشاء﴾ أي ذلك الموعود به من المغفرة والجنة هو عطاء الله الواسع ، يتفضل به على من يشاء من عباده من غير إيجاب ﴿واللهُ ذُو الفضل العظيم﴾ أي ذو العطاء الواسع والإحسان الجليل ﴿ما أصاب من مصيبةٍ في الأرض﴾ أي ما يحدث في الأرض مصيبةٌ من المصائب كقحطٍ ، وزلزلةٍ ، وعاهة في الزروع ، ونقصٍ في الثمار ﴿ولا في أنفسِكم﴾ أي من الأمراض ،والأوصاب ، والفقر ، وذهاب الاولاد ﴿إلاَّ في كتابٍ من قبل أنْ نبرأها﴾ أي إلاَّ وهي مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن نخلقها ونوجدها قال في التسهيل : المعنى أن الأمور كلها مقدَّرة في الأزل ، مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن تكون ، وفي الحديث (إن الله كتب مقادير الأشياء قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وعرشه على الماء)[٥] ﴿إنَّ ذلك على اللهِ يسيرٌ﴾ أي إن إثبات ذلك على كثرته سهلٌ هيِّنٌ على الله عز وجل وإن كان عسيراً على العباد . . ثم بيَّن تعالى لنا

(١) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٣٤ . (٢) البحر المحيط ٨/ ٢٢٥ .
(٣) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٣٤ .
(٤) تفسير البيضاوي ٣/ ٤٥٤ . (٥) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٩٩ .

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾

الحكمة في إعلامنا عن كون هذه الأشياء واقعة بالقضاء والقدر فقال ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم﴾ أي أثبت وكتب ذلك كي لا تحزنوا على ما فاتكم من نعيم الدنيا ﴿ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ أي ولكي لا تبطروا بما أعطاكم الله من زهرة الدنيا ونعيمها قال المفسرون : والمراد بالحزن الحزنُ الذي يوجب القنوط ، وبالفرح الفرحُ الذي يورث الأشر والبطر ، ولهذا قال ابن عباس : « ليس من أحدٍ إلا وهو يحزن ويفرح ، ولكنَّ المؤمن يجعل مصيبته صبراً ، وغنيمته شكراً »[1] ومعنى الآية : لا تحزنوا حزناً يخرجكم إلى أن تهلكوا أنفسكم ، ولا تفرحوا فرحاً شديداً يطغيكم حتى تأشروا فيه وتبطروا ، ولهذا قال بعض العارفين « من عرف سرَّ الله في القدر هانت عليه المصائب »[2] وقال عمر رضي الله عنه : « ما أصابتني مصيبة إلا وجدت فيها ثلاث نعم : الأولى : أنها لم تكن في ديني،الثانية : أنها لم تكن أعظم مما كانت،الثالثة : أن الله يعطي عليها الثواب العظيم والأجر الكبير ﴿وبشر الصابرين • الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا للّهِ وإنّا إليه راجعون • أولئكَ عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمةٌ وأولئك هم المهتدون﴾ ﴿واللّهُ لا يحبُّ كل مُختالٍ فخور﴾ أي لا يحب كل متكبر معجبٍ بما أعطاه الله من حظوظ الدنيا ، فخور به على الناس . . ثم بيَّن تعالى أوصاف هؤلاء المذمومين فقال ﴿الَّذين يبخلون ويأمرون النَّاس بالبخل﴾ أي يبخلون بالإنفاق في سبيل الله ، ولا يكفيهم ذلك حتى يأمروا الناس بالبخل ويرغبوهم في الإمساك ﴿ومنْ يتولَّ﴾ أي ومن يعرض عن الإنفاق ﴿فإن الله هو الغنيُّ الحميد﴾ أي فإن الله مستغنٍ عنه وعن إنفاقه ، محمودٌ في ذاته وصفاته ، لا يضره الإعراض عن شكره ، ولا تنفعه طاعة الطائعين ، وفيه وعيدٌ وتهديد ﴿لقد أرسلنا رُسُلنا بالبيِّنات﴾ اللام موطئة لقسم محذوف أي والله لقد بعثنا رسلنا بالحجج القواطع والمعجزات البينات ﴿وأنزلنا معهم الكتابَ والميزانَ﴾ أي وأنزلنا معهم الكتب السماوية التي فيها سعادة البشرية ، وأنزلنا القانون الذي يُحكم به بين الناس ،وفسَّر بعضهم الميزان بأنه العدلُ وقال ابن زيد : هو ما يُوزن به ويُتعامل ﴿ليقومَ النَّاسُ بالقِسط﴾ أي ليقوم الناس بالحق والعدل في معاملاتهم ﴿وأنزلنا الحديد فيهِ بأسٌ شديد﴾ أي وخلقنا وأوجدنا الحديد فيه بأس شديد ، لأن آلات الحرب تُتخذ منه ، كالدروع ، والرماح ، والتروس ، والدبابات وغير ذلك ﴿ومنافع للناس﴾ أي وفيه منافع كثيرة للناس كسكك الحراثة ، والسكين ، والفأس وغير ذلك وما من صناعةٍ إلا والحديدُ آلة فيها قال أبو حيان : وعبَّر تعالى عن إيجاده بالإنزال كما قال ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ لأن الأوامر وجميع القضايا والأحكام لما كانت تُلقى من السماء جعل الكل نزولاً منها ،

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٥٨ . (٢) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٣٩ .

مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ

وأراد بالحديد جنسه من المعادن قاله الجمهور[١] ﴿وليعلم اللّهُ منْ ينصُره ورُسله بالغيبْ﴾ عطفٌ على محذوف مقدر أي وأنزلنا الحديد ليقاتل به المؤ منون أعداءهم ويجاهدوا لإعلاء كلمة الله ، وليعلم الله من ينصر دينه ورسله باستعمال السيوف والرماح وسائر الأسلحة مؤ مناً بالغيب قال ابن عباس : ينصرونه ولا يبصرونه[٢] ، ثم قال تعالى ﴿إنَّ اللهَ قويٌ عزيز﴾ أي قادر على الانتقام من أعدائه بنفسه ، عزيزٌ أي غالب لا يُغالب فهو غني بقدرته وعزته عن كل أحد قال البيضاوي : أي قويٌ على إهلاك من أراد إهلاكه ، عزيزٌ لا يفتقر إلى نصرة أحد ، وإنما أمرهم بالجهاد لينتفعوا به ويستوجبوا الثواب[٣] وقال ابن كثير : معنى الآية أنه جعل الحديد رادعاً لمن أبى الحقَّ وعانده بعد قيام الحجة عليه ، ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة تُوحى إليه السور ، ويقارعهم بالحجة والبرهان ، فلما قامت الحجة على من خالف أمر الله ، شرع الله الهجرة وأمر المؤ منين بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب ، ولهذا قال عليه السلام (بُعثت بالسيف بين يدي الساعة ، وجُعل رزقي تحت ظل رُمحي ، وجعل الذل والصَّغار على من خالف أمري ، ومن تشبه بقوم فهو منهم)[٤] ثم قال تعالى ﴿إن الله قويٌ عزيز﴾ أي هو قوي عزيز ينصر من شاء من غير احتياج منه إلى الناس ، وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضهم ببعض[٥] ﴿ولقد أرسلْنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذُريتهما النبوَّة والكتاب﴾ لما ذكر بعثة الرسل ذكر هنا شيخ الأنبياء نوحاً عليه السلام ، وأبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام وبيَّن أنه جعل في نسلهما النبوة والكتب السماوية أي وباللهِ لقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا النبوة في نسلهما ، كما أنزلنا الكتب الأربعة وهي « التوراة والزبور والإنجيل والقرآن » على ذريتهما ، وإنما خصَّ نوحاً وإبراهيم بالذكر تشريفاً لهما وتخليداً لمآثرهما الحميدة ﴿فمنهم مُهتدٍ وكثيرٌ منهم فاسقون﴾ أي فمن ذرية نوح وإبراهيم أناس مهتدون ، وكثيرٌ منهم عصاةٌ خارجون عن الطاعة وعن الطريق المستقيم ﴿ثم قفَّينا على آثارهم برُسلنا﴾ أي ثم أتبعنا بعدهم برسلنا الكرام ، أرسلناهم رسولاً بعد رسول ،موسى، وإلياس ، وداود ، وسليمان ، ويونس وغيرهم ﴿وقفَّينا بعيسى ابن مريم﴾ أي وجعلناه بعد أولئك الرسل لأنه كان آخر الأنبياء من بني إسرائيل ﴿وآتيناه الإنجيل﴾ أي وأنزلنا عليه الإنجيل الذي فيه البشارة بمحمد ﷺ ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتَّبعوه رأْفةً ورحمةً﴾ أي وجعلنا في قلوب أتباعه الحواريين الشفقة واللين قال في التسهيل : هذا ثناء من الله عليهم بمحبة بعضهم في بعض كما وصف تعالى أصحاب سيدنا محمد ﷺ بأنهم ﴿رحماء بينهم﴾[٦]

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٢٦ . (٢) تفسير الجلالين ٤/ ١٧٦ .(٣) تفسير البيضاوي ٣/ ٤٥٦ . (٣) أخرجه أحمد وأبو داود .
(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٥٥ . (٦) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٠٠ .

رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

﴿ورهبانيةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم﴾ أي ورهبانيةً ابتدعها القسسُ والرهبان وأحدثوها من تلقاء أنفسهم ، ما فرضناها عليهم ولا أمرناهم بها قال أبو حيان : والرهبانيةُ رفضُ النساء وشهوات الدنيا ، واتخاذ الصوامع ومعنى ﴿ابتدعوها﴾ أي أحدثوها من عند أنفسهم[1] ﴿إلا ابتغاء رضوان الله﴾ أي ما أمرناهم إلا بما يرضي الله ، والاستثناء منقطع والمعنى ما كتبنا عليهم الرهبانية ، ولكنهم فعلوها من تلقاء أنفسهم ابتغاء رضوان الله ﴿فما رعوها حقَّ رعايتها﴾ أي فما قاموا بها حقَّ القيام ، ولا حافظوا عليها كما ينبغي قال ابن كثير : وهذا ذمٌ لهم من وجهين : أحدهما : الابتداع في دين الله ما لم يأمر به اللهُ والثاني : في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة تقربهم إلى الله عز وجل[2] ، وفي الحديث (لكل أمة رهبانية ، ورهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله)[3] ﴿فآتينا الَّذين آمنوا منهم أجرهم﴾ أي فأعطينا الصالحين من أتباع عيسى الذين ثبتوا على العهد وآمنوا بمحمد ﷺ ثوابهم مضاعفاً ﴿وكثيرٌ منهم فاسقون﴾ أي وكثير من النصارى خارجون عن حدود الطاعة منتهكون لمحارم الله كقوله تعالى ﴿إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ وآمنوا برسوله﴾ أي يا من صدقتم بالله اتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، ودوموا واثبتوا على الإيمان ﴿يُؤتكم كِفلين من رحمته﴾ أي يعطكم ضعفين من رحمته ﴿ويجعل لكم نُوراً تمشون به﴾ أي ويجعل لكم في الآخرة نوراً تمشون به على الصراط ﴿ويغفر لكم﴾ أي ويغفر لكم ما أسلفتم من المعاصي ﴿والله غفورٌ رحيم﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿لئلا يعلم أهلُ الكتاب أن لا يقدرون على شيءٍ من فضلِ اللّه﴾ أي إنما بالغنا في هذا البيان ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على تخصيص فضل الله بهم ، ولا يمكنهم حصر الرسالة والنبوة فيهم ، فلا في قوله ﴿لئلا﴾ زائدة والمعنى ليعلم قال المفسرون : إن أهل الكتاب كانوا يقولون الوحي والرسالة فينا ، والكتابُ والشرع ليس إلا لنا ، والله خصنا بهذه الفضيلة العظيمة من بين جميع العالمين ، فردَّ الله عليهم بهذه الآية الكريمة ﴿وأن الفضل بيدِ اللّهِ يُؤْتيه من يشاء﴾ أي وأن أمر النبوة والهداية والإيمان بيد الرحمن يعطيه لمن يشاء من خلقه ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ أي والله واسع الفضل والإحسان .

البَلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

(١) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٢٨ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٥٦ . (٣) أخرجه الإمام أحمد .

١ ـ الطباق بين ﴿يحيي ويميت﴾ وبين ﴿الأول والآخر﴾ وبين ﴿الظاهر والباطن﴾ .

٢ ـ المقابلة بين ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها﴾ وبين ﴿وما ينزل من السماء وما يعرج فيها﴾ .

٣ ـ رد العجز على الصدر ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ وهـو ومـا سبقـه من المحسنات البديعية .

٤ ـ حذف الإيجاز ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل﴾ حذف منه جملة ﴿ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل﴾ وذلك لدلالة الكلام عليه ويسمى هذا الحذف بالإيجاز .

٥ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ أي ليخرجكم من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان ، فاستعار لفظ ﴿الظلمات﴾ للكفر والضلالة ولفظ ﴿النور﴾ للإيمان والهداية وقد تقدم .

٦ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿من ذا الذي يُقرض اللهَ قرضاً حسناً﴾ مثَّل لمن ينفق ماله ابتغاء وجه الله مخلصاً في عمله بمن يُقرض ربه قرضاً واجب الوفاء بطريق الاستعارة التمثيلية .

٧ ـ الأسلوب التهكمي ﴿مأواكم النار هي مولاكم﴾ أي لا ولي لكم ولا ناصر إلا نار جهنم وهو تهكم بهم .

٨ ـ المقابلة اللطيفة بين قوله ﴿باطنه فيه الرحمة﴾ وقوله ﴿وظاهره من قبله العذاب﴾ .

٩ ـ التشبيه التمثيلي ﴿كمثل غيثٍ أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً . .﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد .

١٠ ـ الجناس الناقص ﴿أرسلنا رسلنا﴾ لتغير الشكل وبعض الحروف .

١١ ـ السجع المرصَّع كأنه الدر المنظوم ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأسٌ شديد﴾ وقوله تعـالى ﴿فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾ وهو كثير في القرآن .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الحديد »

* * *

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير
مَعَالي السيّد حَسَن عبّاس الشربتلي
وَجَعَلَهُ وَقْفًا لله تعالى

يُوزع مجانًا ولا يُباع



طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

مَعالي السيّد حسن عبّاس الشربتلي

وَجعلهُ وَقفاً لله تعالى

يوزع مجاناً ولا يباع